

الإيمان باليوم الآخر

الشيخ محمد الصالح العثيمين¹

فصل من كتاب المؤلف بعنوان: كتاب شرح عقيدة أهل السنة والجماعة

ملخص

هذا فصل " الإيمان باليوم الآخر " من شرح الشيخ ابن العثيمين رحمه الله لكتابه عقيدة أهل السنة والجماعة ، و المقطع المشروح يبتدئ من قوله: " ونؤمن باليوم الآخر وهو يوم القيامة، الذي لا يوم بعده حين يبعث الناس أحياء للبقاء، إما في دار النعيم، وإما في دار العذاب الأليم."

و مباحث هذا الفصل :

- الإيمان باليوم الآخر
- الإيمان بالعث و صحائف الأعمال و الموازين
- الشفاعة الخاصة و العامة
- حوض النبي ﷺ و الصراط
- الإيمان بالجنة و النار و أنهما موجودتان و لا تفنيان
- الشهادة بالجنة أو النار إما بالعين أو بالوصف
- الإيمان بفتنة القبر و نعيمه وعذابه
- لا تعارض الأمور الغيبية بما يشاهد في الدنيا

¹ محمد بن صالح العثيمين المعروف بابن عثيمين (1347 - 1421 هـ / 1929 - 2001 م).

فصل

وَنُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، الَّذِي لَا يَوْمَ بَعْدَهُ^(١)، حِينَ يُبْعَثُ
النَّاسُ أَحْيَاءَ لِلْبَقَاءِ، إِمَّا فِي دَارِ النَّعِيمِ، وَإِمَّا فِي دَارِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ.

[١] قَوْلُهُ: «فَصَلِّ: وَنُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، الَّذِي لَا يَوْمَ بَعْدَهُ»،
وَهَذَا أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّتَّةِ، قَالَ ﷺ حِينَ سَأَلَهُ جَبْرِيلُ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ: «أَنْ
تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَبِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»^(١)،
وَهُوَ الرُّكْنُ الْخَامِسُ مِنْهَا، يَقُولُ الْمُؤَلِّفُ: هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

ثُمَّ بَيَّنَّ وَجْهَ وَصْفِهِ بـ«الْآخِرِ»، فَقَالَ: «الَّذِي لَا يَوْمَ بَعْدَهُ» فَهُوَ آخِرُ مَرَحَلَةٍ؛
لَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَهُ مَرَاكِلُ: الْمَرَحَلَةُ الْأُولَى: فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَالثَّانِيَةُ: فِي الدُّنْيَا، وَالثَّلَاثَةُ:
فِي الْبَرْزَخِ، وَالرَّابِعَةُ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ؛ فَهِيَ الْمَرَحَلَةُ الْأَخِيرَةُ، وَلِهَذَا يَغْلُطُ مَنْ يَقُولُ فِي
الْمَيِّتِ: إِنَّهُ نُقِلَ إِلَى مَثْوَاهُ الْآخِرِ؛ لِأَنَّ الْمَثْوَى الْآخِرَ هُوَ إِمَّا الْجَنَّةُ وَإِمَّا النَّارَ، وَلَوْ
كَانَ الْإِنْسَانُ يَعْتَقِدُهُ تَمَامًا لَكَانَ كَافِرًا؛ لِأَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْمَثْوَى الْآخِرَ هِيَ الْقُبُورُ
فَقَدْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ، وَيَكُونُ كَافِرًا، وَمَعَ الْأَسْفِ أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ شَائِعَةٌ بَيْنَ النَّاسِ،
فكَثِيرًا مَا نَسَمَعُهَا فِي الصُّحُفِ وَغَيْرِ الصُّحُفِ، وَهَذَا غَلَطٌ.

قَوْلُهُ: «وَنُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ»؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ، وَذَكَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ
فِي سُنتِهِ، وَكَثِيرًا مَا يَقْرَأُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَهُوَ إِحْيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى الْمَوْتَى، حِينَ يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾^[١] [الزمر: ٦٨].

الْآخِرُ هُوَ الَّذِي يُوجِبُ لِلإِنْسَانِ أَنْ يُسَارِعَ إِلَى الْخَيْرِ، وَأَنْ يَبْتَغِدَ عَنِ الشَّرِّ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الْجَزَاءَ الْكَامِلَ سَيَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَالْيَوْمُ الْآخِرُ: مَا بَعْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فالمرادُ بِهِ الْمَوْقِفُ، قَبْلَ أَنْ يُؤُولَ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، يَعْنِي: مَا فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْمَوْقِفِ وَالشَّدَّةِ.

قَوْلُهُ: «حِينَ يُبْعَثُ النَّاسُ أَحْيَاءً لِلْبَقَاءِ، إِمَّا فِي دَارِ النَّعِيمِ، وَإِمَّا فِي دَارِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ» حِينَ يُبْعَثُ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ أَبَدًا إِلَى مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ.

[١] قَوْلُهُ: «فَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَهُوَ إِحْيَاءُ اللَّهِ تَعَالَى الْمَوْتَى، حِينَ يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾» فالإيمانُ بِالْبَعْثِ، وَهُوَ إِحْيَاءُ اللَّهِ الْمَوْتَى، حِينَ يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ فَيَخْرِجُ النَّاسَ مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاءً.

وَإِسْرَافِيلُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَهُوَ أَحَدُ الْمَلَائِكَةِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ يَذْكُرُهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي اسْتِفْتَاكِ صَلَاةِ اللَّيْلِ: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ...»^(١).

(١) أخرجه مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، رقم (٧٧٠)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وإنما ذكر هؤلاء الثلاثة؛ لأنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُوَكَّلٌ بِمَا فِيهِ حَيَاةٌ، فَجِبْرِيلُ مُوَكَّلٌ بِالْوَحْيِ، الَّذِي فِيهِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ، وَإِسْرَافِيلُ مُوَكَّلٌ بِالنَّفْخِ فِي الصُّورِ، الَّذِي فِيهِ حَيَاةُ الْأَبْدَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمِيكَائِيلُ مُوَكَّلٌ بِالْقَطْرِ وَالنَّبَاتِ، الَّذِي فِيهِ حَيَاةُ الْأَرْضِ.

وقوله: «حِينَ يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ النَّفْخَةَ الثَّانِيَةَ» أفادنا المؤلف أنه ليس هناك إلا نفختان:

النَّفْخَةُ الْأُولَى: فِيهَا الْفَزَعُ ثُمَّ الصَّعَقُ.

وَالنَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ: فِيهَا الْبَعْثُ وَالْإِحْيَاءُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النَّملِ: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَةٍ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]. الْمُرَادُ بِهَا النَّفْخَةُ الَّتِي فِيهَا الصَّعَقَةُ، فَيَفْزَعُ النَّاسُ؛ لَهَوْلِ مَا سَمِعُوا مِنَ الصَّوْتِ الْعَظِيمِ، ثُمَّ يَمُوتُونَ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ أفادت الآية الكريمة أن بين النفختين مهلة؛ لأنَّ ثَمَّ تَفِيدُ التَّرْتِيبَ وَالتَّرَاحِي، وَهَذِهِ الْمُهْلَةُ قَالَ فِيهَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -فِيمَا رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: «إِنَّ بَيْنَهُمَا أَرْبَعِينَ»، فَسَأَلُوهُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ سَنَةً أَوْ شَهْرًا، كُلَّمَا قَالُوا شَيْئًا قَالَ: «أَبَيْتُ»، يَعْنِي أَنِّي لَا أَخْبِرُكُمْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ

فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً بِلَا نِعَالٍ، عُرَاةً بِلَا ثِيَابٍ،
غُرْلًا بِلَا خِتَانٍ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^[١]
[الأنبياء: ١٠٤].

إِنَّمَا قَالَ: «أَرْبَعِينَ» وَسَكَتَ^(١). فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ.

[١] قَوْلُهُ: «فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً بِلَا نِعَالٍ، وَعُرَاةً
بِلَا ثِيَابٍ، غُرْلًا بِلَا خِتَانٍ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا
فَاعِلِينَ﴾» وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَوَّلِ بَدْءِ الْخَلْقِ وَجَدْتَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُخْرَجُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ
حَافِيًا، عَارِيًا، أَغْرَلًا، فَهُمْ يُحْشَرُونَ بِلَا نِعَالٍ، وَعُرَاةً بِلَا ثِيَابٍ، وَغُرْلًا غَيْرَ مَخْتُونِينَ،
بِمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ يَرُدُّ إِلَيْهِمْ مَا أَخَذَ فِي حَيَاتِهِمْ، مِمَّا فِيهِ حَيَاةٌ.

وَهَلِ الْإِنْسَانُ الَّذِي أَخَذَتْ كُلِّيَّتُهُ تُرَدُّ إِلَيْهِ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ، لَكِنْ قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّهَا لَا تُرَدُّ؛ لِأَنَّهَا أَخَذَتْ بِغَيْرِ شَرْعٍ،
بِخِلَافِ جِلْدَةِ الْخِتَانِ فَإِنَّهَا مَأْخُوذَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَكِنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ: ﴿كَمَا
بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أَنَّ الْإِنْسَانَ يُعَادُ بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِ، حَتَّى مَنْ قُطِعَتْ يَدُهُ،
أَوْ مَنْ قُطِعَتْ رِجْلُهُ، أَوْ تَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُعَادَ كَمَا خُلِقَ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ يَتَحَمَّلُونَ أَنْ يَبْقَوْا خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ؟
وَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ وَهُمْ عُرَاةٌ؟

قُلْنَا: أَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْأَوَّلِ فَإِنَّ أَحْوَالَ الْأَبْدَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَتْ كَأَحْوَالِهَا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾،
رَقْمُ (٤٨١٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ، بَابُ مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ، رَقْمُ (٢٩٥٥).

فِي الدُّنْيَا، بَلْ يُعْطِيهَا اللَّهُ مِنَ الْقُوَّةِ وَالصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ مَا لَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا، وَلِهَذَا تَدْنُو الشَّمْسُ مِنْهُمْ مَقْدَارَ مِيلٍ وَلَا يَحْتَرِقُونَ، بَيْنَمَا الشَّمْسُ لَوْ تَنَزَّلَتْ عَنْ مَسَارِهَا فِي الدُّنْيَا مَقْدَارَ شَعْرَةٍ وَاحِدَةٍ لَأَحْرَقَتْ الْأَرْضَ كُلَّهَا بِمَنْ عَلَيْهَا.

وَأَمَّا كَوْنُ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ فَقَدْ أَجَابَ عَنْهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ مَشْغُولٌ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]. سُبْحَانَ اللَّهِ! أَعَانَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ عَلَى هَذَا!!

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ فَأَكَّدَ اللَّهُ ذَلِكَ بِأَمْرَيْنِ: بِأَنَّهُ وَعَدٌ وَاجِبٌ عَلَى اللَّهِ، فَلَمْ يَقُلْ وَعَدًا مِنَّا، بَلْ قَالَ: ﴿وَعَدَّا عَلَيْنَا﴾، وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾، بَيْنَمَا الْكُفَّارُ يَقُولُونَ: مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ فَقَالَ اللَّهُ: ﴿وَعَدَّا عَلَيْنَا﴾ أَيُّ: ثَابِتٌ وَاجِبٌ عَلَيْنَا، وَلِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يُوجِبَ عَلَى نَفْسِهِ مَا شَاءَ، أَمَّا نَحْنُ فَلَا نُوجِبُ عَلَى اللَّهِ شَيْئًا، وَإِنَّمَا نُؤْمِنُ بِأَنَّ عَلَى اللَّهِ أَشْيَاءَ وَاجِبَةً، أَوْجَبَهَا هُوَ عَلَى نَفْسِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا أَوْ جَهَلَ بِشَيْءٍ ثُمَّ تَابَ﴾ [النساء: ١٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الأنعام: ١٢]. وَهُنَا قَالَ: ﴿وَعَدَّا عَلَيْنَا﴾ فَأَوْجَبَ اللَّهُ هَذَا الْوَعْدَ عَلَيْهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ، وَأَوْفَى الْوَاعِدِينَ: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وَأَكَّدَ هَذَا الْفِعْلَ، حَيْثُ أَتَى بِهِ مُؤَكَّدًا بـ «إِنَّ»، وَأَتَى بِهِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ: ﴿فَاعِلِينَ﴾، وَلَمْ يَقُلْ: إِنَّا كُنَّا نَفْعَلُ؛ لِتَحَقُّقِ وَقُوعِهِ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْهُ.

وَنُؤْمِنُ بِصَحَائِفِ الْأَعْمَالِ، تُعْطَى بِالْيَمِينِ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ الظُّهُورِ بِالشَّالِ^[١]
﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ٧ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ٨ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ
مَسْرُورًا^[٢] ٩.....

[١] قَوْلُهُ: «نُؤْمِنُ بِصَحَائِفِ الْأَعْمَالِ، تُعْطَى بِالْيَمِينِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ الظُّهُورِ
بِالشَّالِ» صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ هِيَ الَّتِي كُتِبَتْ فِيهَا الْأَعْمَالُ، فَكُلُّ شَيْءٍ يُكْتَبُ، قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وَقَالَ تَعَالَى ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتِلُنَا مَا لَ هَذَا أَلْكَتَبَ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا
أَخَصَّنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فَهَذِهِ الْكُتُبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُنَشَّرُ، وَتُفْتَحُ لِلْإِنْسَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ ١٣ ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ [الإسراء: ١٣-١٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ
أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

وَهَذِهِ الصَّحَائِفُ تُعْطَى بِالْيَمِينِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾
[الحاقة: ١٩]، وَتُعْطَى مِنْ وَرَاءِ الظُّهُورِ بِالشَّالِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِشِمَالِهِ﴾ [الحاقة: ٢٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: ١٠]. وَفَهْمُنَا
مِنْ كَلَامِ الْمُؤَلِّفِ أَنَّهُ لَا تَنَافٍ بَيْنَ ذِكْرِ الشَّالِ وَوَرَاءِ الظَّهْرِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ يُعْطَى كِتَابَهُ
بِالشَّالِ، وَلَكِنْ تُلَوَّى يَدُهُ، حَتَّى تَكُونَ مِنْ وَرَاءِ الظَّهْرِ، كَمَا أَنَّهُ جَعَلَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ
ظَهْرِهِ فِي الدُّنْيَا، جَعَلَ اللَّهُ كِتَابَ عَمَلِهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فِي الْآخِرَةِ، خَزِيًا وَعَارًا.

[٢] قَوْلُهُ: «﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ٧ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ٨
وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾» وَالْحِسَابُ الْيَسِيرُ هُوَ: أَنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَخْلُو بَعْبِدِهِ

وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

المؤمن، ليسَ عنده أحدٌ، ويُقرِّره بذُنُوبِهِ، فيقول: فعلتَ كذا، وفعلتَ كذا، وفعلتَ كذا، ويُقرُّ ولا يُمكن أن يُنكر، حتَّى إذا ظنَّ أنَّه هلك، قال الله تعالى -مُتَنَّا عَلَيْهِ-: «سَتَرْتُمَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا»، وهذه نعمةٌ سابقةٌ «وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»^(١)، وهذه نعمةٌ لاحقةٌ، ولهذا قال: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ لو أننا فكَّرنا في الذُّنُوبِ الَّتِي نَعْمَلُهَا، دُونَ أن يَطَّلَعَ عَلَيْهَا النَّاسُ لَوَجَدْنَاها عَظِيمَةً كَثِيرَةً، وَلَكِنْ بَسَّطَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ وَمَنَّهُ وَكَرَمِهِ سِتْرَهَا عَلَيْنَا، أَمَّا لَوْ نُوقِشَ الْإِنْسَانُ الْحِسَابَ لَهْلَكَ، فَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ»^(٢)، أَي صَارَ مُسْتَحَقًّا لِلْعَذَابِ.

﴿وَيُنْقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أَهْلُهُ فِي الْجَنَّةِ؛ لِأَنَّ لَهُ أَهْلِينَ فِي الْجَنَّةِ يَنْقَلِبُ إِلَيْهِمْ مَسْرُورًا، وَظَاهِرُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ مِنْ حِينِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ يَظْهَرُ عَلَيْهِ الشُّرُورُ، وَرُبَّمَا يَكُونَ النَّاسُ فِي غَمٍّ وَهَمٍّ، لَكِنْ هُوَ مَسْرُورٌ.

وَعَلِمَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْحِسَابَ يَقَعُ بَعْدَ أَنْ يُعْطَى الْإِنْسَانُ كِتَابَهُ، وَهَذَا هُوَ التَّرْتِيبُ الْعَقْلِيُّ، أَنْ يُعْطَى الْإِنْسَانُ كَشَفَ الْحِسَابِ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا تَأَمَّلَهُ وَرَاجَعَهُ يُحَاسَبُ عَلَيْهِ وَيُنَاقَشُ، فإِثْنَانُ الْكِتَابِ يَكُونُ قَبْلَ الْحِسَابِ.

[١] قَوْلُهُ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾

يَعْنِي يَدْعُو بِالْثُبُورِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- وَاثْبُورَاهُ، وَاعَارَاهُ، وَاخْزِيَاهُ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾، رَقْم (٤٦٨٥)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الذِّكْرِ وَالِدَعَاءِ وَالتَّوْبَةِ، بَابُ قَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاتِلِ وَإِنْ كَثُرَ قَتْلُهُ، رَقْم (٢٧٦٨)، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عَذِبَ، رَقْم (٦٥٣٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَّةِ، بَابُ إِثْبَاتِ الْحِسَابِ، رَقْم (٢٨٧٦)، مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].
وَنُؤْمِنُ بِالْمَوَازِينِ تُوَضَّعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا^[٢]،.....

[١] قَوْلُهُ: ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَنْصَفَكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبًا عَلَىٰ نَفْسِكَ، يُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا مَنشُورًا مَفْتُوحًا، فَلَا يُكَلِّفُهُ فَتْحَهُ، وَيُقَالُ لَهُ: ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ وَهَذَا هُوَ غَايَةُ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ: أَنَّهُ هُوَ بِنَفْسِهِ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ، بِنَاءً عَلَىٰ مَا فِي كِتَابِهِ.

إِذَنْ: نُؤْمِنُ بِالصَّحَائِفِ، وَأَنَّ النَّاسَ يُؤْتَوْنَ إِمَّا بِالْيَمِينِ، وَإِمَّا بِالشَّامَالِ، وَتَأْمَلُ مَا فِي سُورَةِ الْحَاقَّةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَءُوا كِتَابِيَّةَ ﴾ [الحاقة: ١٩]؛ يُرِيهِ النَّاسَ مُفْتَخِرًا بِهِ، مُتَحَدِّثًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ؛ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَّةَ ﴾ [الحاقة: ٢٥]. يَتَمَنَّى أَنَّهُ هُوَ لَمْ يُطْلَعْ عَلَيْهِ، وَلَا يُطْلَعْ عَلَيْهِ النَّاسُ؛ لِأَنَّهُ خِزْيٌ وَعَارٌ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ.

[٢] قَوْلُهُ: «وَنُؤْمِنُ بِالْمَوَازِينِ تُوَضَّعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا» «المَوَازِينُ» جَمْعُ مِيزَانٍ، وَالْمَوَازِينُ ذُكِرَتْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَرَّةً بِالْجَمْعِ، وَمَرَّةً بِالْإِفْرَادِ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ»^(١). وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الدَّعَوَاتِ، بَابُ فَضْلِ التَّسْبِيحِ، رَقْمُ (٦٤٠٦)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الذِّكْرِ وَالِدَعَاءِ، بَابُ فَضْلِ التَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ وَالدَّعَاءِ، رَقْمُ (٢٦٩٤)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يسيرٌ جدًّا: وهو أنَّ الموازين جُمِعَتْ إمَّا لكثرة ما يُوزَنُ بها، وإمَّا لكثرتها باعتبار الأشخاص - كُلِّ إنسانٍ لَهُ مِيزَانٌ -، وإمَّا باعتبار الأُمم.

وأما الأفراد فهو مُفْرَدٌ يُرادُ بِهِ العُموم؛ لأنَّه للجنس.

ثمَّ ما الَّذي يُوزَنُ، هل يُوزَنُ العَمَلُ، أوِ العَامِلُ، أو تُوزَنُ الصَّحَائِفُ؟

الجواب: كُلُّ هَذَا وَرَدَ، فَوَرَدَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذي يُوزَنُ العَامِلُ، وَذَلِكَ فِيما

صَحَّ فِي قِصَّةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ خَرَجَ يَمْشِي ذَاتَ يَوْمٍ، وَكَانَتْ الرِّيحُ شَدِيدَةً،

فَجَعَلَتْ تَكْفَأُ ثِيَابَهُ، وَكَانَتْ سَاقَاهُ دَقِيقَتَيْنِ، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ: «أَنَّهُمَا فِي الْمِيزَانِ مِثْلُ

جَبَلٍ أَحَدٍ»^(١). وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذي يُوزَنُ العَامِلُ، وَرُبَّمَا يُسْتَدَلُّ لَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]. عَلَى أَنَّ فِي الْآيَةِ مَعْنَى آخَرَ، وَهُوَ أَنَّ

لَا نُقِيمُ لَهُمْ وَزَنًا، يَعْنِي لَيْسُوا عِنْدَنَا بِشَيْءٍ، وَلَا نَعْتَبِرُهُمْ شَيْئًا.

وَأَمَّا أَنَّ الَّذي يُوزَنُ العَمَلُ، ففِيهَا هَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي سَاقَهَا الْمُؤَلِّفُ، قَالَ

تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]. إِذِنَّ الَّذي يُوزَنُ هُوَ

العَمَلُ، وَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ فِي: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»^(٢) إِنَّهُمَا:

«ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ».

فَإِذَا كَانَ الَّذي يُوزَنُ العَمَلُ، ففِي ذَلِكَ إِشْكَالٌ، وَهُوَ أَنَّ العَمَلَ مَعْنَى مِنَ

المعاني، وَلَيْسَ جِسْمًا يُوزَنُ فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ١١٤) من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، (١/ ٤٢٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح، رقم (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم (٢٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الجواب: عَنْ ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُجْعَلُ هَذِهِ الْمَعَانِي أَجْسَامًا، كَمَا أَنَّ تَعَالَى يُجْعَلُ الْمَوْتُ - وَهُوَ مَعْنَى - فِي صُورَةِ كَبَشٍ وَهُوَ جِسْمٌ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُجْعَلَ هَذِهِ الْمَعَانِي أَجْسَامًا مَشْهُودَةً مَرْتَبَةً.

أَمَّا أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ هُوَ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ، فَذَلِكَ كَمَا فِي حَدِيثِ صَاحِبِ الْبِطَاقَةِ، الَّذِي تُمَدُّ لَهُ سَجَلَاتٌ عَظِيمَةٌ كَثِيرَةٌ، فِيهَا ذُنُوبٌ، فَإِذَا رَأَى أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ قِيلَ لَهُ: إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَيُؤْتَى بِبِطَاقَةٍ فِيهَا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! وَمَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ بِالنِّسْبَةِ لِهَذِهِ السَّجَلَاتِ؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، ثُمَّ تُوَضَّعُ الْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، وَالسَّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ، فَتَطْيَشُ السَّجَلَاتُ^(١)، وَتَثْقُلُ الْبِطَاقَةُ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ الصَّحَائِفُ.

فَكَيْفَ الْجَمْعُ؟ لِأَنَّ هَذِهِ أَخْبَارٌ، وَلَيْسَتْ أَحْكَامًا، حَتَّى نَقُولَ: إِنَّهُ يُمَكِّنُ أَنْ يَنْسَخَ بَعْضُهَا بَعْضًا.

الْجَمْعُ أَنْ يُقَالَ: أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلصَّحَائِفِ وَالْأَعْمَالِ نَفْسُهَا فَلَا مُنَافَاةَ، إِذْ يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ الْأَعْمَالُ تُوزَنُ بِالصَّحَائِفِ، فَإِذَا ثَقُلَ الْعَمَلُ لَزِمَ مِنْ ذَلِكَ ثِقَلُ الصَّحِيفَةِ، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْعَامِلِ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُوزَنُ فَرُبَّمَا نَقُولُ: إِنَّ هَذَا يَقَعُ لِبَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ تَرْجِعُ إِلَى مَسْئَلَةِ اللَّهِ، لَيْسَ لِلْعَقْلِ فِيهَا تَدَخُّلٌ.

قَوْلُهُ: «فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا» شَيْئًا نَكْرَةً فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَتَعَمُّ أَيَّ شَيْءٍ.

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٢/ ٢١٣)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ مَا جَاءَ فِيهِ مَوْتٌ وَهُوَ يَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، رَقْمُ (٢٦٣٩)، وَابْنُ مَاجَهَ: كِتَابُ الزَّهْدِ، بَابُ مَا يَرْجَى مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَقْمُ (٤٣٠٠)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^[١] [الزلزلة: ٧-٨]. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ^[٢] (١٠٣)

[١] قَوْلُهُ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ مِثْقَالُ الذَّرَّةِ يُضْرَبُ مَثَلًا لِلْقِلَّةِ، كَمَا فِي قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ مِنَ الْأَرْضِ شِبْرًا»^(١).

وكَذَلِكَ مَنْ يَعْمَلُ دُونَ الذَّرَّةِ فَإِنَّهُ يَرَهُ، فَمَا دَامَ ذَكَرَ الذَّرَّةَ هُنَا لِبَيَانِ الْقِلَّةِ، فَهُوَ عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، وَلَيْسَ عَلَى سَبِيلِ التَّحْدِيدِ.

[٢] قَوْلُهُ: «﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾» وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمِيزَانَ حَسْبِيٌّ، وَهُوَ كَذَلِكَ، وَقَالَتِ الْمُعْتَرِضَةُ: إِنَّهُ لَيْسَ حَسْبِيًّا، وَلَيْسَ هُنَاكَ كِفَّتَانِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِالْمِيزَانِ إِقَامَةُ الْعَدْلِ، فَانْكُرُوا مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ صَرِيحًا وَمَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ صَرِيحَةً أَيْضًا، بِنَاءً عَلَى أَنَّهُمْ يَتَلَقَّوْنَ الْعَقَائِدَ مِنْ عُقُولِهِمْ، وَكُلُّ شَيْءٍ اسْتَبَعْدَتْهُ عُقُولُهُمْ فَإِنَّهُمْ يُنْكِرُونَهُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا غَلْطٌ، وَأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ لَوَازِمَ بَاطِلَةٍ، كَتَكْذِيبِ خَبَرِ اللَّهِ وَخَبَرِ رَسُولِهِ ﷺ وَتَحْرِيفِهِمَا إِلَى مَعَانٍ بَعِيدَةٍ.

إِذِنِ الْمِيزَانُ - عَلَى مَا نَعْتَقِدُ - مِيزَانٌ حَسْبِيٌّ، لَهُ كِفَّتَانِ تُوزَنُ فِيهِ الْأَعْمَالُ، أَوْ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ، أَوْ الْعَمَالُ، حَسَبَ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئاً من الأرض، رقم (٢٤٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، رقم (١٦١٠)، من حديث سعيد ابن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٤] ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٢﴾ [الأنعام: ١٦٠].
وَنُؤْمِنُ بِالشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً ﴿٣﴾،

[١] قَوْلُهُ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ «هُؤُلَاءِ الْكُفَّارُ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ، وَذَكَرَ الْوُجُوهَ لِأَنَّهَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ تَأْتِرًا؛ وَلِأَنَّهَا إِذَا عُدَّتِ الْوُجُوهُ كَانَ ذَلِكَ أَذَلَّ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِنْسَانِ.

[٢] قَوْلُهُ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ «هَذَا بَيَانٌ كَيْفَ تَكُونُ الْمَوَازِينُ، فَمَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا» وَهَذَا أَذْنَى مَا يُثَابُ عَلَيْهِ الْمَرْءُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْحَسَنَةِ، وَإِلَّا فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بَعَشْرَ أَمْثَالِهَا، إِلَى سَبْعِ مِئَةٍ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، لَكِنَّ أَذْنَى مَا يَكُونُ أَنَّ لَهُ عَشْرَ أَمْثَالِهَا.

وَعَلِمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾: أَنَّهُ لَوْ كَانَ هُنَاكَ مَا يُبْطِلُ الْحَسَنَاتِ فَإِنَّهَا لَا تَنْفَعُهُ، مِثْلُ أَنْ يَرْتَدَّ الْإِنْسَانُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- فَإِنَّهُ لَا تَنْفَعُهُ الْحَسَنَاتُ وَلَوْ فَعَلَهَا فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿مَنْ جَاءَ﴾ فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الْحَسَنَاتُ وَاصِلَةً إِلَى الْإِنْسَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَكَذَلِكَ السَّيِّئَاتُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَعْمَلُ السَّيِّئَةَ ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهَا، فَلَا يَكُونُ قَدْ أَتَى بِهَا.

[٣] قَوْلُهُ: «وَنُؤْمِنُ بِالشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً».

وَقَوْلُهُ: «نُؤْمِنُ»، وَمِثْلُهَا: «نَقُولُ» يَعْنِي: مَعَشَرَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ عَقِيدَةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلَى ذَلِكَ.

والشَّفَاعَةُ هِيَ: «التَّوَسُّطُ لِلْغَيْرِ بِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ أَوْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ» فَمَثَلًا: الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ هَذِهِ جَلْبُ مَنْفَعَةٍ، وَالشَّفَاعَةُ فِيمَنْ دَخَلَ النَّارَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا هَذِهِ دَفْعُ مَضَرَّةٍ.

فَنُؤَمِّنُ بِالشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَ«الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى» اسْمٌ تَفْضِيلٌ مِنَ الْعَظَمَةِ؛ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ الشَّفَاعَاتِ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ اتَّفَقَ عَلَى الْإِيمَانِ بِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَالْخَوَارِجُ، وَالْمُعْتَزِلَةُ.

وَالشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى لِلنَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةٌ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، لَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا أَحَدٌ، فَهِيَ لِلرَّسُولِ وَحْدَهُ، وَهِيَ مِنَ الْمَقَامِ الْمُحْمُودِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَمَنْ أَلِيلَ فَتَهَجَدَ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. فَهُوَ مَقَامٌ يَحْمَدُهُ عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، وَيَعْتَرِفُونَ بِالْفَضْلِ لِلرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا مَا قِيلَ مِنْ أَنَّ الْمَقَامَ الْمُحْمُودَ هُوَ جُلُوسُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى الْعَرْشِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَذَا الْقَوْلُ غَيْرُ صَحِيحٍ؛ لِأَنَّ الْجُلُوسَ عَلَى الْعَرْشِ خَاصٌّ بِاللَّهِ تَعَالَى، لَا يَثْبُتُ لْغَيْرِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى حِينَهَا يَسْجُدُ النَّبِيُّ ﷺ تَحْتَ الْعَرْشِ، ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ، فَيَقُولُ: رَبِّي أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَيْنَ مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ هَذِهِ الشَّفَاعَةُ تَكُونُ لْجَمِيعِ الْخَلْقِ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ بَابِ التَّخْصِصِ؛ لِفَضْلِ الْأُمَّةِ، وَإِلَّا فَفِيهِ عَامَّةٌ، كَمَا جَاءَتْ فِي الْأَحَادِيثِ الْآخَرَى.

يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِإِذْنِهِ لِيَقْضِيَ بَيْنَ عِبَادِهِ، حِينَ يُصِيبُهُمْ مِنَ الْهَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ^[١]، فَيَذْهَبُونَ إِلَى آدَمَ ثُمَّ نُوحٍ ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ ثُمَّ مُوسَى ثُمَّ عِيسَى حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^[٢].

[١] قَوْلُهُ: «يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِإِذْنِهِ لِيَقْضِيَ بَيْنَ عِبَادِهِ، حِينَ يُصِيبُهُمْ مِنَ الْهَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ» يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ مِقْدَارُهُ خَمْسُونَ أَلْفَ سَنَةٍ، لَا بِنَاءَ، وَلَا شَجَرَ، وَلَا ثَوْبَ، وَلَا شَيْءَ، مَعَ الزَّحَامِ الشَّدِيدِ الْعَظِيمِ: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾؛ وَفِي هَذَا الْيَوْمِ الْعَظِيمِ يَلْحَقُ النَّاسَ فِيهِ مِنَ الْهَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَيَطْلُبُونَ شَفِيعًا إِلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ يُنْجِيهِمْ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ.

[٢] قَوْلُهُ: «فَيَذْهَبُونَ إِلَى آدَمَ، ثُمَّ نُوحٍ، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ مُوسَى، ثُمَّ عِيسَى، حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ» يُلْهَمُونَ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَيَذْهَبُونَ إِلَيْهِ وَيَذْكُرُونَ مِنْ مَنَاقِبِهِ وَفَضَائِلِهِ؛ لِيَشْفَعَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، فَيَعْتَذِرُ بِأَنَّهُ عَصَى رَبَّهُ بِأَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ، مَعَ أَنَّهُ تَابَ مِنْهُ، لَكِنْ لَمَّا كَانَ مَقَامُ الشَّفَاعَةِ مَقَامًا عَظِيمًا - فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الشَّافِعُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَشْفُوعِ إِلَيْهِ مَا يَثْلُبُ مَقَامَهُ - اعْتَذَرَ بِأَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ، مَعَ أَنَّهُ تَابَ وَحَسُنَتْ حَالُهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ، لَكِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي قَدْ عَصَى مَنْ يُرِيدُ الشَّفَاعَةَ إِلَيْهِ سَوْفَ يَكُونُ فِي وَجْهِهِ حَيَاءٌ وَخَجَلٌ، وَاعْتَذَارُهُ بِأَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾؛ «أَنَّ حَوَاءَ لَمَّا حَمَلَتْ أَتَاهَا الشَّيْطَانُ، وَقَالَ لَهَا وَلَا دَمَ: أَنَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ،

سَمِيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ - أَيْ الْوَلَدَ - وَإِلَّا فَسَيُخْرِجُ مَيِّتًا»، وَفِي النِّهَايَةِ سَمِيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ ^(١)، هَذِهِ الْقِصَّةُ لَا شَكَّ أَنَّهَا مَكْذُوبَةٌ، فَكَيْفَ يَأْتِي إِلَيْهَا لِقَبْلًا كَلَامُهُ، وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَهَلْ هَذَا كَلَامٌ مُتَوَسِّلٌ وَمُتَضَرِّعٌ لِقَبُولِ قَوْلِهِ؟! أَوْ إِنَّ هَذَا مِمَّا يُوجِبُ النُّفُورَ مِنْ قَوْلِهِ؟! الثَّانِي: بَلَا شَكٍّ.

وأيضًا: لَوْ أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَعَلَ ذَلِكَ - وَحَاشَاهُ مِنْهُ - لَكَانَ شَرَكًا، وَالشِّرْكُ أَعْظَمُ مِنَ الْكِبَائِرِ، فَضْلًا عَنِ الصَّغَائِرِ، وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَاحْتَجَّ بِهِ آدَمُ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَجُّ بِأَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ.

وَالْمُهِمُّ: أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ مَكْذُوبَةٌ، وَقَدْ ذَكَرْنَاَهَا فِي شَرْحِنَا لـ (كِتَابِ التَّوْحِيدِ)، وَذَكَرْنَا سَبْعَةَ أَوْجُهٍ، تَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِهَا ^(٢).

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُلْهِمُهُمُ اللَّهُ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَسْأَلُونَهُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، فَيَعْتَذِرُ مِنْهُمْ بِأَنَّهُ سَأَلَ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]. فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ: أَنَّهُ اعْتَذَرَ أَنَّهُ دَعَا عَلَى قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

ثُمَّ يُلْهِمُونَهُ أَنْ يَذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَذْكُرُونَ مِنْ مَنَاقِبِهِ وَفَضَائِلِهِ؛ لِيَشْفَعَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ، فَيَعْتَذِرُ بِأَنَّهُ كَذَبَ ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، وَهُوَ لَمْ يَكْذِبْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (١١ / ٥)، وَالتِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ وَمِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ، رَقْمُ (٣٠٧٧)، مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جَنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انْظُرْ: الْقَوْلُ الْمَفِيدُ عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ (٢ / ٢٩٩).

ولكنه تأويل وتورية، والتورية حقيقتها صدق، وظاهرها كذب، لكن لكمال إبراهيم عليه الصلاة والسلام - الذي وصفه ربه بأنه وفي - رأى أن هذا يوجب الخجل أن يشفع عند الله سبحانه وتعالى.

ثم يلهمون أن يأتوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فيعتذر بأنه قتل نفساً لم يؤمر بقتلها، وهي نفس القبطي الذي قتله حين استغاثه الإسرائيلي عليه، وكان موسى عليه الصلاة والسلام قوياً، فوكزه وكزة واحدة فقتل عليه.

ثم يلهمون أن يذهبوا إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، ولكن عيسى عليه الصلاة والسلام لا يعتذر بشيء، لكن يدل على من هو أفضل منه، وهو محمد ﷺ، ويقول: اذهبوا إلى محمد ﷺ، وكل واحد منهم يقول: نفسي! نفسي!

فيأتون إلى رسول الله ﷺ، وهذا الأمر الذي وقع بإلهام الله لهؤلاء الناس؛ ليتبين به فضل رسول الله ﷺ على غيره؛ لأن أربعة منهم يعتذرون بشيء مما يوجب الخجل وهم آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، عليهم الصلاة والسلام، والخامس لا يذكر خطيئته، ولكنه يعترف أن في الساحة من هو أفضل منه، وهو محمد ﷺ، الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيشفع إلى الله عز وجل أن يخلص الناس مما هم فيه، ويقضي بينهم، فيجيبه الله عز وجل، ويقضي بين العباد.

هذه الشفاعة تسمى عند العلماء رحمهم الله الشفاعة العظمى، وهي لكل الناس، مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، ولم يختلف فيها أحد من أهل القبلة، بل كل أهل القبلة - المبتدعة وأهل السنة - يؤمنون بها.

وَنُؤْمِنُ بِالشَّفَاعَةِ فِيمَنْ دَخَلَ النَّارَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنْهَا، وَهِيَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ^[١]،

[١] قَوْلُهُ: «وَنُؤْمِنُ بِالشَّفَاعَةِ فِيمَنْ دَخَلَ النَّارَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُخْرَجُوا مِنْهَا، وَهِيَ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَغَيْرِهِ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَالْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَلَائِكَةِ» هَذِهِ الشَّفَاعَةُ لثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ، وَالْمُؤْمِنُونَ، وَيَشْمَلُ الصَّادِقِينَ، وَالشُّهَدَاءَ، وَالصَّالِحِينَ، وَالثَّالِثُ الْمَلَائِكَةُ، إِذَنْ هِيَ عَامَّةٌ فِيمَنْ يَشْفَعُ، وَفِيمَنْ دَخَلَ النَّارَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ فِي ذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَمَا أَنْشَدَ ذَلِكَ بَعْضُ الْفَضَلَاءِ فَقَالَ^(١):

مِمَّا تَوَاتَرَ حَدِيثٌ مَنْ كَذَبَ وَمَنْ بَنَى لِلَّهِ بَيْتًا وَاحْتَسَبَ
وَرُؤْيَا شَفَاعَةً وَالْحَوْضَ وَمَسَحَ خُفَيْنِ وَهَذِي بَعْضُ

وَلَكِنْ أَنْكَرَ هَذِهِ الشَّفَاعَةَ طَائِفَتَانِ مُبْتَدِعَتَانِ، وَهُمَا: الْخَوَارِجُ، وَالْمَعْتَزِلَةُ، مَعَ أَنَّهُمَا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ، وَيَنْتَسِبُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِمُ الْفَاسِدِ، وَهُوَ أَنْ فَاعَلَ الْكَبِيرَةَ مُخَلِّدًا فِي النَّارِ، وَإِذَا كَانَ مُخَلِّدًا فِي النَّارِ فَلَا تَنْفَعُ فِيهِ الشَّفَاعَةُ، وَلِهَذَا لَوْ دَعَا الْإِنْسَانُ أَنْ يُخْرَجَ مِنَ النَّارِ مَنْ هُوَ مُخَلِّدٌ فِيهَا كَانَ مُعْتَدِيًا فِي الدُّعَاءِ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُتُوبَ، فَلَوْ قَالَ مَثَلًا: اللَّهُمَّ أَخْرِجْ أَبَا هَبٍ مِنَ النَّارِ، اللَّهُمَّ أَخْرِجْ أَبَا طَالِبٍ مِنَ النَّارِ، قُلْنَا لَهُ: أَنْتَ الْآنَ آثِمٌ، وَعَلَيْكَ أَنْ تُتُوبَ وَتَسْتَغْفِرَ اللَّهَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْخُلُودِ.

(١) ذكرهما الكتاني في نظم المتناثر (ص: ١٨)، نقلًا عن الشيخ أبي عبد الله محمد التاودي في حواشيه على الجامع الصحيح.

وَبِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ، بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ^[١].
وَنُؤْمِنُ بِحَوْضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ،

[١] قَوْلُهُ: «وَبِأَنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ، بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ» إِذَنْ: نُؤْمِنُ بِالشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى لِلرَّسُولِ ﷺ، وَهِيَ خَاصَّةٌ بِهِ، وَبِالشَّفَاعَةِ الصُّغْرَى، وَهِيَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ، وَهِيَ الشَّفَاعَةُ فِيمَنْ دَخَلَ النَّارَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا.
مَسْأَلَةٌ: الشَّفَاعَةُ الَّتِي لِأَبِي طَالِبٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ تُقْبَلْ وَلَمْ تُرَدَّ، وَالَّذِي قَبِلَ: التَّخْفِيفُ فِيهَا فَقَطْ؛ وَلِهَذَا كَانَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ وَعَلَيْهِ نَعْلَانٍ فِي نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، وَيَرَى أَنَّهُ أَشَدُّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا وَهُوَ أَهْوَاهُمْ عَذَابًا لَكِنْ يَرَى أَنَّهُ أَشَدُّ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَقْوَى حُزْنُهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- فَهَذِهِ شَفَاعَةٌ مَقْبُولَةٌ مِنْ وَجْهِهِ وَغَيْرُ مَقْبُولَةٍ مِنْ وَجْهِهِ.

لَكِنْ يُقَالُ: كَيْفَ نُجِيبُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّفَاعِينَ﴾ [المذثر: ٤٨]؟
قُلْنَا: هَذَا مَا نَفَعَهُمُ النَّفْعَ التَّامَّ، بَلْ نَفَعَتْهُ بِتَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْهُ، ثُمَّ هَذَا الرَّجُلُ لَيْسَتْ شَفَاعَتُهُ لِقَرْبِهِ مِنَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، لَكِنْ لِأَنَّهُ دَافِعٌ عَنِ الْإِسْلَامِ وَانْتَفَعَ الْإِسْلَامُ بِهِ، وَمَنْ قَرَأَ السَّيْرَةَ حِينَ بَعَثَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَعْرِفُ مَا حَصَلَ مِنْ أَبِي طَالِبٍ فِي الْمُجَاهَدَةِ الْعَظِيمَةِ وَالِدِّفَاعِ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاللَّهُ تَعَالَى حَكَمٌ عَدْلٌ لَا يُضِيعُ مَنْ دَافَعَ عَنْ دِينِهِ، فَيَسَّرَ لَهُ مُحَمَّدًا ﷺ لِيُشْفَعَ لَهُ.

[٢] الْحَوْضُ الْمَوْرُودُ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ مَوْجُودٌ الْآنَ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَرَى حَوْضَهُ، وَأَنَّ مِنْبَرَهُ عَلَى حَوْضِهِ^(١)، فَهُوَ مَوْجُودٌ، لَكِنَّهُ مِنْ عَالَمِ

(١) أخرجه البخاري: كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل ما بين القبر والمنبر،

مَأْوُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَطْيَبُ مِنْ رَائِحَةِ الْمِسْكِ^[١]،
طُولُهُ شَهْرٌ وَعَرْضُهُ شَهْرٌ^[٢]،.....

الْغَيْبِ، وَعَالَمُ الْغَيْبِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ شَهَادَةً، كَمَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ مَوْجُودُونَ وَمَعَ ذَلِكَ لَا تُشَاهِدُهُمْ، فَالْحَوْضُ مَوْجُودٌ، لَكِنْ يَكُونُ مَنْظُورًا وَمَحْسُوسًا وَمَلْمُوسًا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَهُوَ حَوْضٌ حَسِّيٌّ لِمَائِهِ طَعْمٌ وَرَائِحَةٌ وَلَهُ آيَةٌ.

[١] قوله: «مَأْوُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ» وَفِيمَا نَرَى أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ شَيْءٌ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، لَكِنْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَاءُ حَوْضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى طَيْبِ مَنْظَرِهِ.

«وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ» يَدُلُّ عَلَى طَيْبِ مَذَاقِهِ وَطَعْمِهِ، «وَأَطْيَبُ مِنْ رَائِحَةِ الْمِسْكِ» يَدُلُّ عَلَى طَيْبِ رَائِحَتِهِ.

[٢] أَمَّا سَعْتُهُ فَقَالَ: «طُولُهُ شَهْرٌ وَعَرْضُهُ شَهْرٌ» وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُسْتَدِيرًا، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرَ مُسْتَدِيرٍ لَزَادَتْ زَوَايَاهُ عَلَى شَهْرٍ، إِذْ إِنَّ الْمُرَبَّعَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الزَّوَايَةِ وَمُقَابِلَتِهَا أَكْثَرُ مِنْ مُسَطَّحِهِ، وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ الْحَوْضُ مُسْتَدِيرًا، وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ فِي الْأَحْوَاضِ؛ فَحِيَاضُ الْإِبِلِ حِينَمَا تُورَدُ عَلَيْهَا تَكُونُ مُسْتَدِيرَةً.

وَقَوْلُهُ: «طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ» إِذَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: طُولُهُ شَهْرٌ وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَالْمُرَادُ بِهِ سَيْرُ الْإِبِلِ الْمُحْمَلَةِ؛ لِأَنَّهُ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ لَا تُوجَدُ سَاعَاتٌ، وَلَا سَيَّارَاتٌ، وَلَا طَائِرَاتٌ، فَيُحْمَلُ مَا جَاءَ بِهِ التَّقْدِيرُ عَلَى مَا كَانَ مَعْرُوفًا مَأْلُوفًا.

= رقم (١١٩٦)، ومسلم: كتاب الحج، باب ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة، رقم (١٣٩١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَنِّيئُهُ كُنُجُومِ السَّمَاءِ حُسْنًا وَكَثْرَةً، يَرِدُهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُمَّتِهِ^(١)،.....

[١] قَوْلُهُ: «أَنِّيئُهُ كُنُجُومِ السَّمَاءِ» حُسْنًا وَكَثْرَةً، وَالْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي ذَلِكَ مِنْهَا مَا لَفْظُهُ: «أَنِّيئُهُ كُنُجُومِ السَّمَاءِ»^(١)، وَمِنْهَا مَا لَفْظُهُ: «أَنِّيئُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ»^(٢)، وَلَكِنَّا نَأْخُذُ بِاللَّفْظِ الْأَوَّلِ: «كُنُجُومِ السَّمَاءِ» لِيَشْمَلَ ذَلِكَ الْعَدَدَ وَالْحُسْنَ، فَإِنِّيئُهُ مُضِيئَةٌ، لَامِعَةٌ، كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى، كَمَا أَنَّ نُجُومَ السَّمَاءِ لَا تُحْصَى، لَكِنَّهَا لَيْسَتْ كُنُجُومِ السَّمَاءِ فِي الْحَجْمِ، لَكِنْ فِي مَنْظَرِ النَّاسِ: نُجُومُ السَّمَاءِ حَسَنَةٌ، مُضِيئَةٌ، كَثِيرَةٌ.

وَيَسْتَمِدُّ هَذَا الْحَوْضُ مِنَ الْكَوْثَرِ، وَهُوَ النَّهْرُ الْعَظِيمُ الْكَثِيرُ، الَّذِي أُعْطِيَهِ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ، يَنْطَلِقُ مِنْهُ مِزَابَانِ، يَصُبَّانِ فِي هَذَا الْحَوْضِ، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ -اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ- يَذُوقُونَهَا قَبْلَ دُخُولِهَا بِوَاسِطَةِ هَذَا الْحَوْضِ؛ لِأَنَّ هَذَا الْحَوْضَ يَصُبُّ فِيهِ مِزَابَا الْكَوْثَرِ، الَّذِي فِي الْجَنَّةِ، وَيَرِدُهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُمَّتِهِ خَاصَّةً.

وَهَلْ لِبَقِيَّةِ الْأَنْبِيَاءِ أَحْوَاضٌ؟

الْجَوَابُ: وَرَدَ فِي التِّرْمِذِيِّ أَنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا^(٣).

لَكِنْ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْحَوْضَ الْكَبِيرَ الْوَاسِعَ الْأَعْظَمَ هُوَ حَوْضُ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ أُمَّتَهُ أَكْثَرُ الْأُمَمِ، فَهُمْ ثُلَاثَا أَهْلِ الْجَنَّةِ -أَيُّ ثَمَانُونَ فِي الْمِائَةِ وَالْعِشْرِينَ-، فَهُمْ أَكْثَرُ النَّاسِ، فَحَوْضُهُمْ أَعْظَمُ الْحِيَاضِ، وَأَكْبَرُهَا وَأَوْسَعُهَا، يَرِدُهُ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُمَّتِهِ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ فِي الْحَوْضِ، رَقْمُ (٦٥٧٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْفَضَائِلِ، بَابُ إِثْبَاتِ حَوْضِ نَبِيِّنَا ﷺ، رَقْمُ (٢٢٩٢)، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ فِي الْحَوْضِ، رَقْمُ (٦٥٨٠)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْفَضَائِلِ، بَابُ إِثْبَاتِ حَوْضِ نَبِيِّنَا ﷺ، رَقْمُ (٢٣٠٣)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ: كِتَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الْحَوْضِ، رَقْمُ (٢٤٤٣)، مِنْ حَدِيثِ سَمُرَةَ بْنِ جَنْدَبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَ ذَلِكَ^[١].

وَنُؤْمِنُ بِالصَّرَاطِ الْمَنْصُوبِ عَلَى جَهَنَّمَ^[٢]،.....

وسُهولةُ ورودِهِم عليه كسُهولةِ ورودِهِم على شَرعِهِ، جَزَاءً وَفَاقًا، فَمَنْ كَانَ وَرُودُهُ عَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَشَرعِهِ سَهْلًا وَيَنْقَادُ لِلشَّرعِ وَيُطَبِّقُهُ مَا اسْتَطَاعَ فَسَيَكُونُ وَرُودُهُ لِهَذَا الْحَوْضِ سَهْلًا مُيسَّرًا، والعَكْسُ بالعَكْسِ.

[١] قَوْلُهُ: «مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَ ذَلِكَ» أَبَدًا، مَعَ أَنَّ النَّاسَ يَرُدُّونَ عَلَيْهِ وَهُمْ عَطَاشٌ، فِي أَشَدِّ مَا يَكُونُ مِنَ الضَّرورةِ إِلَيْهِ، فَإِذَا شَرَبُوا مِنْهُ فَلَا ظَمَأَ، لَا فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَلَا فِي الْجَنَّةِ.

مَسْأَلَةٌ: جَاءَ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ عَمَّنْ يَرُدُّونَ عَنِ الْحَوْضِ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدَثُوا بَعْدَكَ^(١)؛ فالمرادُ بِذَلِكَ أَهْلُ الرَّدَّةِ الَّذِينَ كَانُوا مُسْلِمِينَ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ثُمَّ ارْتَدَّوْا، أَمَّا الرَّافِضَةُ فَيَقُولُونَ: المرادُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ لِأَنَّهُمَا أَحَدَا بَعْدَهُ، حَيْثُ اغْتَصَبَا الْخِلَافَةَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَيُقَالُ: قَاتَلَكُمُ اللَّهُ! مَا الَّذِي أَحَدَثَا بَعْدَهُ؟! فَمَا أَحَدَثَا فِي أُمَّتِهِ إِلَّا الْخَيْرَ.

[٢] قَوْلُهُ: «نُؤْمِنُ بِالصَّرَاطِ الْمَنْصُوبِ عَلَى جَهَنَّمَ» يَعْنِي يُنْصَبُ صِرَاطٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، أَيْ فَوْقَ ظَهْرِهَا، يَمُرُّ عَلَيْهِ النَّاسُ، عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ.

وَهَذَا الصَّرَاطُ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ: هَلْ هُوَ صِرَاطٌ عَلَى ظَاهِرِهِ، أَيْ أَنَّهُ طَرِيقٌ حَسِّيٌّ، وَاضِحٌ يَمُرُّ النَّاسُ بِهِ، بِدَلِيلٍ أَنَّ عَلَى حَافَتَيْهِ كَلَالِيْبَ، وَأَنَّهُ كَشَوْكُ السَّعْدَانِ،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف الحشر، رقم (٦٥٢٦)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب إثبات حوض نبينا ﷺ، رقم (٢٢٩٥)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ^[١]، فَيَمُرُّ أَوْلَهُمْ كَالْبَرْقِ^[٢] ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ^[٣] ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَأَشَدَّ الرِّجَالِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: يَا رَبِّ! سَلِّمْ سَلِّمْ!^[٤]

كَمَا قَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ^(١)، وَأَنَّهُ دَحْضٌ وَمَزَلَّةٌ، أَوْ أَنَّهُ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ، وَأَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ، وَأَنَّ النَّاسَ يَمُرُّونَ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ الَّذِي أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ وَأَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ؟

فِي هَذَا خِلَافٌ بَيْنَ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِالثَّانِي، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ، وَلَيْسَ هُنَاكَ أُدْلَةٌ وَاضِحَةٌ تَفْصِلُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، فَمُعْتَقِدُنَا فِي ذَلِكَ أَنَّ نَقُولَ: اللَّهُ أَعْلَمُ، لَكِنْ نُوْمِنُ بِهَذَا الصِّرَاطِ.

[١] قَوْلُهُ: «يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدَرِ أَعْمَالِهِمْ» فِي الدُّنْيَا، فَلَمُسَارَعُ فِي الْخَيْرَاتِ يَكُونُ سَرِيعًا فِيهِ، وَالْبَطِيءُ فِي الْخَيْرَاتِ يَكُونُ بَاطِنًا فِيهِ.

[٢] قَوْلُهُ: «فَيَمُرُّ أَوْلَهُمْ كَالْبَرْقِ»، وَأَسْرَعُ مَا يَكُونُ مُضِيًّا هُوَ الْبَرْقُ فِيمَا نُشَاهِدُ.

[٣] قَوْلُهُ: «ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ» أَي مُرُورِهَا، وَلَا شَكَّ أَنَّ الرِّيحَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَسْرَعُ مَا يَكُونُ تَصَوُّرًا، وَلَكِنْ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ وَجِدَ مَا هُوَ أَسْرَعُ؛ ثُمَّ قَالَ: «ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَأَشَدَّ الرِّجَالِ».

[٤] قَوْلُهُ: «وَالنَّبِيُّ ﷺ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ» صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَهَلِ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَسْفَلِ الصِّرَاطِ، أَوْ فِي أَعْلَاهُ؟ اللَّهُ أَعْلَمُ، وَالْمُهَمُّ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ مَعْرِفَةِ طَرِيقِ الرُّؤْيَا، رَقْمُ (١٨٣)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

حَتَّى تَعْجَزُ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، فَيَأْتِي مَنْ يَزْحَفُ^[١]، وَفِي حَافَتِي الصَّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ
مَأْمُورَةٌ، تَأْخُذُ مَنْ أَمَرْتُ بِهِ؛ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمُكَرَّدَسٌ فِي النَّارِ^[٢].

أَنَّهُ قَائِمٌ عَلَيْهِ يَدْعُو اللَّهَ، يَقُولُ: «يَا رَبِّ سَلِّمْ، يَا رَبِّ سَلِّمْ»^(١)، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ
الْأَمْرِ؛ لِأَنَّ الصَّرَاطَ دَخُضٌ مَزَلَّةٌ، وَخَطَرٌ عَظِيمٌ؛ لِأَنَّ الَّذِي تَحْتَهُ هُوَ النَّارُ - نَسْأَلُ اللَّهَ
أَنْ يُجِيرَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا - فَلَيْسَ الْأَمْرُ بِالْهَيِّنِ، وَلِهَذَا خَاتَمَ الرُّسُلِ، وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ،
وَإِمَامُ الْمُوقِنِينَ يَقُولُ: «يَا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ».

[١] قَوْلُهُ: «حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ، فَيَأْتِي مَنْ يَزْحَفُ» زَحْفًا أَيْ لَا يَسْتَطِيعُ
الْقِيَامَ عَلَى قَدَمَيْهِ؛ لِأَنَّ عَمَلَهُ لَا يَحْمِلُهُ عَلَى أَنْ يَقُومَ.

[٢] قَوْلُهُ: «وَفِي حَافَتِي الصَّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ، تَأْخُذُ مَنْ أَمَرْتُ بِهِ،
فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمُكَرَّدَسٌ فِي النَّارِ»، الْكَالَالِيبُ فَوْقَ الصَّرَاطِ، تُؤَمَّرُ أَنْ تَأْخُذَ مَنْ
يَمُرُّ حِينَ مُرُورِهِ، وَتُلْقِيهِ فِي النَّارِ، وَلِهَذَا قَالَ «فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ» مِنْ هَذِهِ الْكَالَالِيبِ،
و«مُكَرَّدَسٌ فِي النَّارِ» أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ!

ثُمَّ إِنَّ الْمُكَرَّدَسَ فِي النَّارِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عَصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ، لَا يُخَلَّدُ فِيهَا؛ لِأَنَّ الْكَافِرِينَ
لَا يَمُرُّونَ عَلَى هَذَا الصَّرَاطِ أَصْلًا، وَلَا يُمْتَحَنُونَ بِهِ؛ لِأَنَّ مَا وَاهُمُ النَّارُ يُؤْتَى بِهَا،
وَتُجَرُّ بِسَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، كُلُّ زِمَامٍ يَجْرُهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، وَهَذَا قَبْلَ الصَّرَاطِ،
فَيَذْهَبُ أَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، أَمَّا الْعَصَاةُ وَغَيْرُ الْعَصَاةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَيَمُرُّونَ عَلَى هَذَا
الصَّرَاطِ.

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةٌ فِيهَا، رَقْمُ (١٩٥)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي
هَرِيرَةَ وَحَدِيثَةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فالمُكَرَّدَسُ فِي النَّارِ لَا يُجَلَّدُ فِيهَا، ثُمَّ هَلْ يُلْقَى فِي النَّارِ، الَّتِي هِيَ نَارُ الْكَافِرِينَ، أَوْ يُلْقَى فِي نَارٍ أُخْرَى؟

فِي هَذَا قَوْلَانِ لِلسَّلَفِ: فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُكَرَّدَسُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، الَّتِي هِيَ نَارُ الْكَافِرِينَ، لَكِنَّ أَعْضَاءَ السُّجُودِ لَا تَأْكُلُهَا النَّارُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَعْضَاءَ السُّجُودِ. وَهِيَ الْجَبْهَةُ وَالْأَنْفُ وَالْكَفَّانِ وَالرُّكْبَتَانِ وَأَطْرَافُ الْقَدَمَيْنِ.

لَكِنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: هِيَ نَارٌ لَيْسَتْ كَالنَّارِ الْأُمِّ، وَهِيَ النَّارُ الَّتِي تَفْنَى، وَهَذَا ظَاهِرٌ كَلَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ فِي (الْوَابِلِ الصَّيِّبِ) ^(١)، أَنَّ النَّارَ الَّتِي تَفْنَى هِيَ نَارُ الْمُعَذِّبِينَ بِذُنُوبِهِمْ فَقَطْ، لَا نَارُ الْكَافِرِينَ، إِذْ إِنَّ نَارَ الْكَافِرِينَ لَا تَفْنَى، وَهِيَ أَشَدُّ عَذَابًا مِنَ النَّارِ الَّتِي تَفْنَى، وَأَشَدُّ حَرَارَةً.

وَلَكِنَّ ظَاهِرَ النَّصِّ أَنَّهَا النَّارُ الَّتِي لِلْكَافِرِينَ، لَكِنَّ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ تَكُونَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى غَيْرِ الْكَافِرِينَ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

مَسْأَلَةٌ: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ هَلْ مَعْنَى الْوُرُودِ هُوَ الْمُرُورُ عَلَى الصَّرَاطِ؟

الْجَوَابُ: هَذَا فِيهِ قَوْلَانِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ، ذَكَرَهُمَا ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ ^(٢) وَغَيْرُهُ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ، فَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْوُرُودِ هُوَ الْمُرُورُ عَلَى الصَّرَاطِ، وَقِيلَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِالْوُرُودِ أَنَّهُمْ يُلْقُونَ فِيهَا كُلَّ أَحَدٍ يَدْخُلُ النَّارَ، لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تَضُرُّهُ؛ وَالْأَوَّلُ أَقْرَبُ.

(١) الوابل الصيب (ص: ٢٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٢٢٣-٢٢٧).

وَنُؤْمِنُ بِكُلِّ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ أَخْبَارِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَهْوَالِهِ، أَعَانَنَا اللَّهُ عَلَيْهَا^[١] وَيَسِّرَهَا عَلَيْنَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ.

وَنُؤْمِنُ بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَهِيَ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةٌ^[٢].

[١] قَوْلُهُ: «وَنُؤْمِنُ بِكُلِّ مَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ أَخْبَارِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَهْوَالِهِ، أَعَانَنَا اللَّهُ عَلَيْهَا» هَذَا كَلَامٌ عَامٌّ، وَالْمُرَادُ بِ«السُّنَّةِ» السُّنَّةُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي هِيَ حُجَّةٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ وَرَدَتْ أَحَادِيثُ ضَعِيفَةٌ كَثِيرَةٌ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأَهْوَالِ الْآخِرَةِ، لَكِنْ كُلَّمَا تَكَلَّمْنَا عَنْ دَلِيلٍ مِنَ السُّنَّةِ فَهُوَ مِنَ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي هِيَ حُجَّةٌ.

قَوْلُهُ: «مِنْ أَخْبَارِ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَهْوَالِهِ أَعَانَنَا اللَّهُ عَلَيْهَا»، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُجْمَلًا أَهْوَالُهُ: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

[٢] قَوْلُهُ: «وَنُؤْمِنُ بِشَفَاعَةِ النَّبِيِّ ﷺ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَهِيَ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةٌ» وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا عَبَرُوا الصَّرَاطَ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يُقْتَصَّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، وَتُغَسَّلُ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْغِلِّ وَالْحِقْدِ، حَتَّى يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهِ، وَإِذَا جَاؤُوا إِلَى أَبْوَابِ الْجَنَّةِ لَمْ يَجِدُوهَا مَفْتُوحَةً، أَمَّا أَهْلُ النَّارِ فَكَمَا يَقُولُ تَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ فوراً؛ وَذَلِكَ إِهَانَةٌ لَهُمْ، وَمُبَادَرَةٌ بِالْعُقُوبَةِ عَلَيْهِمْ.

أَمَّا أَهْلُ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُونَهَا عَلَى إِشْفَاقٍ، فَإِذَا جَاءُوهَا وَجَدُوهَا مُغْلَقَةً، فَيَحْتَاجُونَ إِلَى شَفَاعَةٍ، وَالَّذِي يَشْفَعُ لَهُمْ هُوَ الرَّسُولُ ﷺ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَهَلِ النَّاسُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ يَذْهَبُونَ فَوْرًا إِلَى الرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّ غَيْرَهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْفَعَ، أَوْ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَشْفَعُ بِدُونِ سُؤَالٍ؟

الله أعلم ولا أدري، فما بلغني في هذا علمٌ.

والمهم: أن الرسول ﷺ يشفع أن تفتح أبواب الجنة لأهلها، وغيره لا يشفع؛ لأنه عليه الصلاة والسلام إذا شفع وفتحت الأبواب ما احتجنا إلى شفاعته فقد انتهى كل شيء، ودخل أهل الجنة الجنة، بشفاعة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وهذه شفاعته خاصة له، كما أن له شفاعته أخرى خاصة به، وهي شفاعته في كافر، والكافر لا يمكن أن يشفع فيه؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والكافر غير مرتضى عند الله، إلا كافرًا واحدًا استأذن الرسول ﷺ ربه أن يشفع له فأذن له، وهو أبو طالب، وأذن الله لنبيه أن يشفع له لا لأنه عم الرسول، فأبو الرسول عليه الصلاة والسلام أقوى صلة من عمه، ومع ذلك لم يشفع له، بل أم الرسول ﷺ، والأم أحق الناس بحسن الصحبة، ومع ذلك لم يأذن الله لرسوله ﷺ أن يستغفر لها^(١)، وهي أمه، والاستغفار شفاعته؛ لأن الله لا يغفر لعدوه إطلاقًا.

فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له أن يزور قبرها، اعتبارًا وحنانًا طبيعيًا، لا دينيًا، ولكنه لم يدع لها بالمغفرة ولا بالرحمة، ولا شفع لها، مع أن صلتها به أقوى من صلة أبي طالب، وصلة أبي الرسول بالرسول ﷺ أقوى من صلة عمه به، لكن الله أذن للرسول أن يشفع لأبي طالب؛ لأن أبا طالب حصل منه سعي مشكور في الدفاع

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، رقم (٩٧٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَإِنَّهُ دَافَعَ وَنَاضَلَ عَنْهُ، وَعَادَى قُرَيْشًا مِنْ أَجْلِهِ، وَقَالَ: «وَاللَّهِ لَا نُسَلِّمُهُ لَكُمْ»، فَشَكَرَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لَهُ هَذَا الصَّنِيعَ.

فَإِذَنْ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ أَنْ يَشْفَعَ فِيهِ، فَشَفَعَ لَهُ، لَكِنْ كَانَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، عَلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ، وَيَرَى أَنَّهُ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا^(١)، وَلَا يَرَى أَنَّ غَيْرَهُ مِثْلُهُ، وَلَا أَنَّ غَيْرَهُ أَهْوَنُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَوْ رَأَى أَنَّ غَيْرَهُ مِثْلُهُ لَهَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا شَارَكَهُ غَيْرُهُ فِي الْمَأْسَاةِ أَوْ صَارَ أَعْظَمَ مِنْهُ خَفَّتْ عَلَيْهِ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ، وَهَذَا يَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ أَلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]. أَيْ: لَا يَنْفَعُكُمْ، وَلَا يَتَسَلَّى بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ، وَقَالَتِ الْخَنَسَاءُ تَرْتِي أَخَاهَا صَخْرًا^(٢):

وَلَوْ لَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَسَلِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسِي

فَأَبُو طَالِبٍ أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا، مَعَ هَذَا الْعَذَابِ الْعَظِيمِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ -، فَعَلَيْهِ نَعْلَانِ مِنْ نَارٍ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ، وَهُوَ أَعْلَى مَا فِي جَسَدِهِ، فَمَا بِالْكَ بِمَا دُونَهُ مِمَّا قَرُبَ مِنَ النَّعْلَيْنِ اللَّذَيْنِ مِنَ النَّارِ؟! فَهُوَ أَشَدُّ وَأَشَدُّ، وَإِنَّهُ لَيَرَى أَنَّهُ أَشَدُّ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٦٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب، رقم (٢١٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) ديوان الخنساء (ص: ٧٢).

وَنُؤْمِنُ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ:

فَالْجَنَّةُ: دَارُ النَّعِيمِ، الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ^[١]،.....

هَذِهِ الشَّفَاعَةُ خَاصَّةٌ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَا أَحَدٌ يَشْفَعُ لِأَيِّ إِنْسَانٍ كَافِرٍ مَهْمَا كَانَ، حَتَّى لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ كَافِرًا مِنَ النَّاسِ دَافَعَ عَنِ الْإِسْلَامِ الْيَوْمَ، وَصَارَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَعْدَائِهِ، فَلَا أَحَدٌ يَشْفَعُ لَهُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الشَّفَاعَةُ: «خَاصَّةٌ فِي خَاصٍّ لِحَاصٍّ»، فَهِيَ «خَاصَّةٌ» بِالنَّبِيِّ ﷺ، «فِي خَاصٍّ»: وَهُوَ أَبُو طَالِبٍ، حَتَّى الرَّسُولُ ﷺ لَا يَشْفَعُ لِأَحَدٍ غَيْرِ أَبِي طَالِبٍ. «لِحَاصٍّ»: وَهُوَ دَفَاعُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ أَعْظَمَ مُدَافَعَةٍ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ نُجِيبُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾؟

قُلْنَا: هَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَا تَنْفَعُهُ نَفْعًا تَامًّا، وَإِنَّمَا تَنْفَعُهُ بِتَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْهُ.

[١] قَوْلُهُ: «وَنُؤْمِنُ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَالْجَنَّةُ دَارُ النَّعِيمِ، الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ»، «أَعَدَّهَا اللَّهُ» يَعْنِي هِيَ الْآنَ مَوْجُودَةٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أُعِدَّتْ أَي: هُيِّئَتْ الْآنَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ دَخَلَهَا، وَرَأَى فِيهَا قَصْرًا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(١)، وَسَمِعَ فِيهَا خَشْخَشَةَ بِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٢). وَرَأَى فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ مَا رَأَى، فَهِيَ مَوْجُودَةٌ الْآنَ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، وَقَوْلُنَا: «لِلْمُؤْمِنِينَ» هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْقُلُوبِ، وَ«الْمُتَّقِينَ» هَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْجَوَارِحِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، بَابُ مَنَاقِبِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَبِي حَفْصٍ الْقُرَشِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَقْمُ (٣٦٧٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، بَابُ مَنْ فَضَائِلُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، رَقْمُ (٢٣٩٤)، مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، بَابُ مَنَاقِبِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَقْمُ (٣٦٧٩)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، بَابُ مَنْ فَضَائِلُ أُمِّ سَلِيمٍ أُمِّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَبِلَالٍ، رَقْمُ (٢٤٥٧)، مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ^[١]، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^[٢] [السجدة: ١٧٠].

[١] قَوْلُهُ: «فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِثْلُ نَعِيمِ الْآخِرَةِ، وَلَا سُمِعَ بِمِثْلِ هَذَا النَّعِيمِ، مِنْ حُسْنِ الْأَصْوَاتِ، وَالْكَلَامِ الطَّيِّبِ، تَحِيَّتُهُمْ فِيهِ سَلَامٌ، لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا تَأْثِيمٌ، إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا.

وَقَوْلُهُ: «وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَخْطُرَ عَلَى قَلْبِكَ هَذَا النَّعِيمُ أَبَدًا، فَكُلُّ مَا نَرَى مِنَ النَّعِيمِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ جُزْءٌ لَا يُنْسَبُ بِالنِّسْبَةِ لِنَعِيمِ الْآخِرَةِ، إِلَّا إِذَا نُسِبَتِ الذَّرَّةُ لِلشَّمْسِ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

[٢] قَوْلُهُ: «﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾» ﴿نَفْسٌ﴾: نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، فَأَيُّ نَفْسٍ لَا يُمَكِّنُ أَبَدًا أَنْ تَعْلَمَ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ، أَقَرَّ اللَّهُ أَعْيُنَنَا وَأَعْيُنَكُمْ بِذَلِكَ!.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ جَزَاءً عَظِيمٌ فِي عَمَلٍ يَسِيرٍ، وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»^(١).

هَذِهِ هِيَ الْجَنَّةُ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْبُسْتَانُ الْكَثِيرُ الْأَشْجَارِ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ بَدْءِ الْخَلْقِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ، رَقْمُ (٣٢٤٤)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا، رَقْمُ (٢٨٢٤)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالنَّارُ: دَارُ الْعَذَابِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ، فِيهَا مِنْ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الْبَالِ^(١)،

الَّذِي تُغَطِّي أَرْضُهُ بِالزُّرُوعِ وَهَوَاؤُهُ بِأَغْصَانِ الْأَشْجَارِ؛ لِأَنَّكَ لَوْ قُلْتَهُ لَهَا نِ النَّعِيمُ، حَتَّى لَوْ فُرِضَ أَنَّ الْجَنَّةَ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ هَكَذَا مَعْنَاهَا، فَإِنَّ جَنَّةَ الْآخِرَةِ لَيْسَتْ كَذَلِكَ، بَلْ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ بِكَثِيرٍ، وَمَنْ شَاءَ الْبَسْطِ فِي هَذَا فَلْيَرْجِعْ إِلَى مَا أُلْفَ فِي هَذَا.

[١] قَوْلُهُ: «وَالنَّارُ دَارُ الْعَذَابِ، الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ، فِيهَا مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّكَالِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الْبَالِ».

يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهَا فَضِّلَتْ عَلَى نَارِ الدُّنْيَا كُلِّهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا»^(١)، أَضِفْ إِلَيْهَا تَمَامَ السَّبْعِينَ، فَكُلُّ نَارِ الدُّنْيَا -نَارُ الْحَطَبِ، أَوْ نَارُ الْغَازِ، أَوْ نَارُ الْجَازِ-؛ عَلَى أَعْظَمَ مَا فِيهَا فَإِنَّ نَارَ الْآخِرَةِ فَضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، وَمَنْ يَتَصَوَّرُ هَذِهِ النَّارَ؟! نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ!.

وَقَوْلُهُ: «فِيهِ مِنَ النَّكَالِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الْبَالِ» قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. فَإِذَا نَضِجَتْ وَصَارَتْ لَا تُحِسُّ مِنْ عَذَابِ النَّارِ بُدِّلَتْ بِجُلُودٍ أُخْرَى جَدِيدَةٍ فِي الْحَالِ؛ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ، كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا، وَأَقْبَلُوا عَلَى شَاطِئِ السَّلَامَةِ، أُعِيدُوا فِيهَا، وَصَارَ هَذَا أَعْظَمَ فِي الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ بَقُوا مُسْتَقَرِّينَ أَيْسُوا وَانْتَهَى الْأَمْرُ، لَكِنْ إِذَا أُعْلُوا حَتَّى يَقُولُوا: خَرَجْنَا خَرَجْنَا! أُعِيدُوا وَأُرْكِسُوا فِيهَا، صَارَ هَذَا أَعْظَمَ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- وَهَكَذَا أَبَدَ الْآبِدِينَ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة النار، رقم (٣٢٦٥)، ومسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، رقم (٢٨٤٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾^[١] [الكهف: ٢٩].

[١] قوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ قوله: «الظَّالِمِينَ» أي ظلم الكُفْرَ لَا مُطْلَقَ الظُّلْمِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ السُّرَادِقُ: هُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا يَكُونُ عِنْدَ مَدْخَلِ الْبَابِ، يَعْنِي: أَنَّ الْعَذَابَ مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَ﴾ [الزمر: ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ وَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَغِيثُوا؛ لِأَنَّهُمْ يَجِدُونَ مِنَ الْعَطَشِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الْبَالِ، وَإِذَا اسْتَغَاثُوا: ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ وَالْمُهْلُ هُوَ رَدِيءُ الزَّيْتِ، الَّذِي يَكُونُ فَوْقَهُ مِنْ أَوْسَاحِهِ، يَعْنِي أَنَّهُ كَرِيهُ الْمَنْظَرِ، وَكَرِيهُ الرَّائِحَةِ ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْفَمِ؛ فَبِمُجَرَّدِ مَا يُقَرِّبُهُ هَذَا الظَّالِمُ إِلَى وَجْهِهِ، يَشْوِي الْوَجْهَ، وَيَتَسَاقَطُ الْوَجْهَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَإِذَا سُقُوا سُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ أَحْيَانًا: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ فَيَشْرَبُونَ الْحَمِيمَ فِي بُطُونِهِمْ وَيُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾، سَبْحَانَ اللَّهِ! هُنَاكَ سُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ؛ لِأَنَّهُ دَخَلَ إِلَى الْأَمْعَاءِ، وَهُنَا يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ الرُّءُوسِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُقَطِّعُ الْأَمْعَاءَ، لَكِنَّهُ يَصْهَرُهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿أَعَاذَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنْهَا! يَقُولُ تَعَالَى: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ صَدَقَ اللَّهُ! إِنَّهُ بِئْسَ الشَّرَابُ.

وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ الْآنَ^[١]، وَلَنْ تَفْنِيَا أَبَدَ الْآبِدِينَ^[٢]، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾^[٣]
 [الطلاق: ١١] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾^[٦٤] خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ
 وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا^[٤] ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا
 الرَّسُولَ ﴿٥﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٦].

[١] قَوْلُهُ: «وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ الْآنَ» أَيِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، أَمَّا الْجَنَّةُ فَيُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ
 تَعَالَى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وَفِي النَّارِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وَمِنْ
 السُّنَّةِ الظَّاهِرَةِ الْمَشْهُورَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

[٢] قَوْلُهُ: «لَنْ تَفْنِيَا أَبَدَ الْآبِدِينَ» وَدَلِيلُ ذَلِكَ:

[٣] قَوْلُهُ: «﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾» فَالشَّاهِدُ هُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَبَدًا﴾ هَذَا صَرِيحٌ فِي التَّأْيِيدِ.

[٤] وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾^[٦٤] خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا
 يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا الشَّاهِدُ قَوْلُهُ: ﴿أَبَدًا﴾.

[٥] قَوْلُهُ: «﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا
 الرَّسُولَ﴾» ﴿يَلَيْتَنَّا﴾ وَلَكِنْ التَّمَنِّي رَأْسُ مَالِ الْمَقَالِيسِ، وَهَذَا التَّمَنِّي يَنْفَعُهُمْ لَوْ كَانَ
 ذَلِكَ فِي وَقْتِ الْإِمْكَانِ، أَمَّا الْآنَ فَلَا، فَإِذَا انْتَقَلَ الْإِنْسَانُ مِنَ الدُّنْيَا، وَعِنْدَ انْتِقَالِهِ
 مِنَ الدُّنْيَا لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ، فَهَذَا فِرْعَوْنُ حِينَما أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ: ﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ
 إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]؛ فَقِيلَ لَهُ: ﴿ءَاكُنْ وَقَدْ
 عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾.

وانظر الذَّلَّ والْعَارَ والخِزْيَ عَلَى هَذَا الْحَيْثِ، الَّذِي كَانَ مُتَكَبِّرًا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَيْفَ صَرَّحَ الْآنَ أَنَّهُ مُتَّبِعٌ لَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُوا إِسْرَءِيلَ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَلَا قَالَ: بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ، كَمَا قَالَ السَّحَرَةُ، بَلْ قَالَ: آمَنْتُ بِالَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَكَأَنَّهُ الْآنَ يَقُولُ: أَنَا تَبِعٌ لَهُمْ، فَأُذِلُّ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْفَعُهُ.

وهؤلاء يقولون: يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ، وَلَكِنْ لَا يُمَكِّنْ هَذَا، ويقولون - أَيْضًا - إِذَا وَقَفُوا عَلَى النَّارِ: ﴿يَلَيْنَا نَزْدُ وَلَا تُكْذِبْ بَيَّاتِ رَبِّنَا وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وَتَأْيِيدُ النَّارِ كِتَابُ الْجَنَّةِ سَوَاءً، فَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ عَقِيدَةً دَلَّ عَلَيْهَا كِتَابُ رَبِّنَا، وَسُنَّةُ نَبِيِّنَا ﷺ، بِأَنَّ النَّارَ مُؤَبَّدَةٌ، وَلَا يُهْمُنَا مَنْ قَالَ بِخِلَافِ ذَلِكَ، بَلْ مَنْ قَالَ بِخِلَافِ ذَلِكَ نَرَى أَنَّهُ أَخْطَأَ، فَإِنْ كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى عَقِيدَةٍ وَأَسَاسٍ وَقَاعِدَةٍ كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يَقُولُ بِمَنْعِ تَسْلُسُلِ الْحَوَادِثِ، كَالْجَهْمِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، فَهُوَ ضَالٌّ، وَمَنْ قَالَهَا عَنْ حُسْنِ قَصْدٍ - وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ حَسَنُ الْقَصْدِ - فَهُوَ مُخْطِئٌ، وَلَنَا أَنْ نَصِفَهُ بِأَنَّهُ ضَالٌّ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ خَالَفَ الْحَقَّ فَهُوَ ضَالٌّ، لَا فِي الْعَقِيدَةِ وَلَا فِي غَيْرِهَا، وَهَذَا لِمَا قِيلَ لِابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حِينَ أَفْتَى فِي مَسْأَلَةِ فَرَضِيَّةٍ، قَالَ: قَدْ ضَلَلْتُ إِذْنُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ؛ لِأَنَّ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ قَالَ لِلسَّائِلِ: وَأَتِ ابْنَ مَسْعُودٍ فَسَوْفَ يُوَفِّقُنِي عَلَى ذَلِكَ^(١).

(١) أخرجه البخاري: كتاب الفرائض، باب ميراث ابنة الابن مع بنت، رقم (٦٧٣٦).

فَعَلَى كُلِّ حَالٍ: مَنْ خَالَفَ فِي هَذَا - أَعْنِي فِي أَبَدِيَّةِ النَّارِ -: إِنْ كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى عَقِيدَةٍ، وَعَلَى مَنْهَجٍ، وَعَلَى قَاعِدَةٍ فَهُوَ ضَالٌّ وَمُبْتَدِعٌ؛ وَإِنْ كَانَ عَنْ حُسْنِ نِيَّةٍ وَاجْتِهَادٍ فَهُوَ مُخْطِئٌ، سَوَاءٌ كَانَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ، أَوْ ابْنُ الْقَيِّمِ، أَوْ غَيْرُهُمَا، نَحْنُ لَا يَهْمُنَا الرَّجَالُ، إِنَّمَا الَّذِي يَهْمُنَا هُوَ الَّذِي قَالَ بِهِ الرَّجَالُ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَشْكِلُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨] فَقَالَ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ؟﴾

فَالْجَوَابُ: لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ يَفْهَمُ الْفَاهِمُ أَنَّهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا مُدَّةَ دَوَامِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَقَطْ وَبَعْدَ ذَلِكَ تَفْنَى أَوْ يُخْرَجُونَ مِنْهَا فَقَالَ: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ﴾ فَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أَيُّ مِنَ الزَّمَنِ، وَهَذَا التَّوَجُّيْهِ لَا إِشْكَالَ فِيهِ أَبَدًا، وَيَبْقَى عِنْدَنَا أَنَّهُ أَهْلُ النَّارِ قَالَ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] أَيْضًا لَا إِشْكَالَ فِيهَا؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ فَضْلٌ فَقَالَ فِيهَا: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ﴾ وَالنَّارَ عَذْلٌ فَقَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا اعْتِرَاضَ لِأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

ثُمَّ إِنَّهُ قَالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ دَفْعًا لِمَا يَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ هَذَا فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الظُّلْمِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ؛ فَقَالَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وقَوْلُهُ: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (مَا) مَصْدَرِيَّةٌ ظَرْفِيَّةٌ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: مُدَّةَ دَوَامِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَنَفَرِّضُ أَنَّهَا مِثْلُ أَلْفِ مِليونِ سَنَةٍ مِثْلًا، فَإِذَا جَاءَتْ

الآية هكذا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ - أي مُدَّةَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ - فَيَفْهَمُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ أَنَّهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا مَثَلًا مِثْلَ مِثَّةِ أَلْفِ مِليون؛ فَقَدَرْنَا هَذَا، أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ تَنْتَهِي؛ إِمَّا بِإِخْرَاجِهِمْ أَوْ بِفَنَائِهِمْ؟.

فَلَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ يَعْني إِلَّا مُدَّةَ زَائِدَةٍ عَلَى ذَلِكَ شَاءَهَا اللَّهُ، وَهَذَا أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ؛ لِأَنَّ هَذَا تَحَدَّثَ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ وَلَيْسَ عَنِ الْمَاضِي، فَبَعْضُ النَّاسِ قَالَ: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي مُدَّةَ دَوَامِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْقَبْرِ وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا دَخَلُوهَا حَتَّى الْآنَ؛ فَنَقُولُ: هَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ؛ وَلَيْسَ بظَاهِرٍ، فَقَدْ تَأَمَّلْتُ الْأَقْوَالَ، وَأَحْسَنُ مَا يُطْمَأَنُّ إِلَيْهِ هُوَ مَا ذَكَرْتُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَتَحَدَّثُ عَنْ شَيْءٍ مُسْتَقْبَلٍ لَا عَنْ شَيْءٍ مَاضٍ.

مَسْأَلَةٌ: بِالنِّسْبَةِ لَوْصِفِ الْجَنَّةِ وَنَعِيمِهَا يُوجَدُ بَعْضُ النَّاسِ وَخَاصَّةً بَعْضُ الشَّبَابِ مَنْ يُكْثِرُونَ فِي قِرَاءَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَوْصَافِ الْحُورِ الْعِينِ خَاصَّةً مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي (نُونِيَّتِهِ) وَغَيْرُهُ مِمَّا قَدْ يُشِيرُ شَهَوَتُهُمْ وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ إِذَا نُصِحُوا يَقُولُونَ: نَحْنُ نَتَصَبَّرُ بِهَذَا فَهَلْ هَذَا لَهُ وَجْهٌ؟ أَمْ أَنَّهُمْ يُنْصَحُونَ بِالْإِبْتِعَادِ عَنْ هَذَا؟

الْجَوَابُ وَاللَّهُ لَا أَرَى قَوْلَهُمْ هَذَا، وَلَمَّاذَا أَيْضًا لَا يَذْكُرُونَ النَّارَ وَوَعِيدَهَا، النَّاسُ الْآنَ هُمْ إِلَى ذِكْرِ الْوَعِيدِ أَخْرَجُ مِنْهُمْ إِلَى ذِكْرِ الْوَعْدِ؛ لِأَنَّ غَالِبَ النَّاسِ فَتَنَتُهُ الدُّنْيَا فَيَحْتَاجُ إِلَى كَايِحٍ، فَالنَّاسُ لَيْسُوا مُقْبِلِينَ الْآنَ حَتَّى نَذْكُرَ لَهُمُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَحْتُفُّهُمْ عَلَى التَّقَدُّمِ، بَلِ النَّاسُ الْآنَ مُدْبِرُونَ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ؛ فَلِهَذَا نَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُرَجِّحَ أَحَدَ الْجَانِبَيْنِ عَلَى الْآخَرِ - التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ - نَرَى فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ أَنَّ نُقَدِّمَ التَّرْهِيْبَ، عَلَى أَنِّي أَنَا لَا أُوَافِقُ عَلَى هَذَا، لَكِنْ أَقُولُ: إِذَا كَانَ وَلَا بُدَّ، فَالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ نَسْلُكَ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ: تَرْغِيبٌ وَتَرْهِيْبٌ.

وَنَشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِكُلِّ مَنْ شَهِدَ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ: بِالْعَيْنِ، أَوْ بِالْوَصْفِ ^[١].
فَمِنْ الشَّهَادَةِ بِالْعَيْنِ: الشَّهَادَةُ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَنَحْوِهِمْ
مَنْ عَيْنَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ ^[٢].

[١] قَوْلُهُ: «وَنَشْهَدُ بِالْجَنَّةِ لِكُلِّ مَنْ شَهِدَ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، بِالْعَيْنِ
أَوْ بِالْوَصْفِ»، فَالشَّهَادَةُ بِالْجَنَّةِ أَوْ بِالنَّارِ لَا تَكُونُ إِلَّا لِمَنْ شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ، أَوْ جَاءَ
فِي الْقُرْآنِ.

وَقَوْلُهُ: «بِالْعَيْنِ، أَوْ بِالْوَصْفِ» يَعْنِي الشَّهَادَةُ قَدْ تَكُونُ بِالْعَيْنِ، بَأَنْ يَشْهَدَ
لِرَجُلٍ بَعَيْنِهِ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ^(١٧) الَّذِي
يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ^(١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ^(١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ^(٢٠) وَلَسَوْفَ
يَرْضَى ^(٢١)﴾ [الليل: ١٧-٢١]، وَهَذِهِ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِإِجْمَاعِ الْمُفَسِّرِينَ كُلِّهِمْ أَوْ جُلَّهِمْ،
وَرُبَّمَا يُقَالُ: إِنَّ مِنْ دَلَائِلِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا
اللَّهُ مَعَنَا ^(٢٢)﴾ [التوبة: ٤٠] فَإِنَّهُ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِصَاحِبِهِ هُنَا أَبُو بَكْرٍ، وَصَاحِبُ
الرَّسُولِ ﷺ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ فِي الشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ، هُوَ أَحَقُّ النَّاسِ بِأَنْ يُشْهَدَ لَهُ بِالْجَنَّةِ،
وَهَذَا الدَّلِيلُ عَلَى شَهَادَةِ الْقُرْآنِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، أَمَّا السُّنَّةُ فَأَمْرُهَا ظَاهِرٌ.

[٢] قَوْلُهُ: «فَمِنْ الشَّهَادَةِ بِالْعَيْنِ الشَّهَادَةُ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ
وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ عَيْنَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ» مِثْلُ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ، وَثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ بْنُ
شِمَاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَدْ شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْجَنَّةِ، وَعُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ
بِالْجَنَّةِ، وَسَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ شَهِدَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ بِالْجَنَّةِ، وَبِلَالٌ، الْمُهِمُّ: أَنَّهُمْ كَثِيرُونَ،
فَالَّذِينَ عَيْنَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يَجِبُ أَنْ نَشْهَدَ لَهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ أَنَّهُمْ فِي الْجَنَّةِ،
تَصَدِيقًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَمِنَ الشَّهَادَةِ بِالْوَصْفِ: الشَّهَادَةُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَوْ تَقِيٍّ^[١].

[١] قَوْلُهُ: «وَمِنَ الشَّهَادَةِ بِالْوَصْفِ الشَّهَادَةُ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَوْ تَقِيٍّ» كُلُّ مُؤْمِنٍ نَشَهُدُ لَهُ بِالْجَنَّةِ، وَكُلُّ تَقِيٍّ نَشَهُدُ لَهُ بِالْجَنَّةِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْجَنَّةِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فِكُلُّ مُتَّقٍ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، لَكِنْ لَا نَشَهُدُ لِفُلَانٍ الَّذِي رَأَيْنَاهُ فِي ظَاهِرِ حَالِهِ مُتَّقِيًّا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، لَكِنْ نَقُولُ: نَرْجُو لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أَمَّا أَنْ نَشَهُدَ لِفُلَانٍ مِنَ النَّاسِ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ فَلَا؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ -فِيمَا يَظْهَرُ لِلنَّاسِ- وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ -فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ- وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»^(١).

وَسَبَبُ هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ رَجُلًا كَانَ مَعَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي غَزْوَةٍ، وَكَانَ شُجَاعًا مِقْدَامًا، لَا يَدْعُ لِلْعَدُوِّ شَاذَةً وَلَا فَادَةً إِلَّا قَضَى عَلَيْهَا، فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَةِ وَخَافُوا، وَقَالُوا فِي أَنْفُسِهِمْ: كَيْفَ يَكُونُ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ! إِذَنْ: أَيْنَ نَكُونُ نَحْنُ؟ فَقَالَ أَحَدُ الصَّحَابَةِ: وَاللَّهِ لَا لَزَمْتُهُ، يَغْنِي: أَتَابِعُهُ، فَكَانَتْ النِّهَايَةُ أَنَّهُ أُصِيبَ بِسَهْمٍ -أَيُّ هَذَا الرَّجُلِ الشُّجَاعِ-، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّجُلَ الشُّجَاعَ إِذَا أُصِيبَ صَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُ عَظِيمًا كَبِيرًا، فَعَظُمَ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَجَزَع، فَأَخَذَ بِسَيْفِهِ وَاسْتَلَّهُ، ثُمَّ وَضَعَهُ عَلَى صَدْرِهِ وَاتَّكَأَ عَلَيْهِ، حَتَّى خَرَجَ مِنْ ظَهْرِهِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ-، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَأَصْبَحَ الرَّجُلُ غَادِيًّا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «بِمَ؟» وَهُوَ يَعْرِفُ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب لا يقال فلان شهيد، رقم (٢٨٩٨)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي.

أَنَّهُ يَشْهَدُ بِذَلِكَ، لَكِنْ لِيُبَيِّنَ الْآيَةَ الَّتِي دَلَّتْ عَلَى أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ؛ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَعَلَ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَقَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» أَسْأَلَ اللَّهَ أَلَّا يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ.

فَالْمَسْأَلَةُ خَطِيرَةٌ، وَلَكِنْ لِيُبَشِّرَ الْعَبْدُ أَنَّ اللَّهَ لَنْ يَخْذُلَ عَبْدَهُ الْمُخْلِصَ أَبَدًا، فَمَتَى كَانَ الْإِنْسَانُ مُخْلِصًا لِلَّهِ مُبْتَغِيًا مَرْضَاتَهُ فَلَنْ يَخْذُلَهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَخْذُلَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ، وَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: «مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا»^(١). فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَخْذُلَهُ اللَّهُ أَبَدًا، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِي الْقَلْبِ - أَجَارَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ وَأَعَاذَنَا وَإِيَّاكُمْ - سَرِيرَةٌ خَبِيثَةٌ، بَاطِنَةٌ كَرَاهَتِهِ لِلْحَقِّ، أَوْ لِبَعْضِ الْحَقِّ، وَحَقْدٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَغِلٌّ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَهْوِي بِهِ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ.

وَلِهَذَا أَنَا أَكْرَرُ دَائِمًا: أَنْ يُرَكِّزَ الْإِنْسَانُ عَلَى تَطْهِيرِ الْقَلْبِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَطَهَّرْ قَلْبَكَ مِنَ الشَّرِّ، وَالْغِلِّ، وَالْحَقْدِ، وَكَرَاهَةِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ فِي أَمْرٍ سَهْلٍ، فَلَا تَكْرَهُ شَيْئًا مِمَّا شَرَعَهُ اللَّهُ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُ رَبُّنَا يُحْتَمُّ لِلْإِنْسَانِ - أَجَارَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ - بِسُوءِ الْخَاتِمَةِ.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، رقم (٧٤٠٥)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالحاصل: أننا لا نشهد بالجنة للرجل إذا رأيناه مُتَقِيًا ظاهراً، لكن نقول: نرجو أنه من أهل الجنة.

وكذلك -أيضاً- الشهادة، فلو أن رجلاً قُتل في صف المسلمين -قتله الكفار- وهو مجاهد، فلا نشهد له بالشهادة أبداً، وقد ترجم الإمام البخاري رحمه الله لهذه المسألة بقوله في الصحيح: «باب: لا يُقال فلان شهيد» واستدل لذلك بقول النبي ﷺ: «مَا مِنْ مَكْلُومٍ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ -وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ- إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَتَعَبُ دَمًا اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرَّيْحُ رِيحُ الْمِسْكِ»^(١)، فقال: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكَلِّمُ فِي سَبِيلِهِ» فجعل العلم في ذلك إلى الله عز وجل، لا إلى الظاهر. وذكر في (الفتح): أثر عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «إِنَّكُمْ تَقُولُونَ: فلان شهيد، وفلان شهيد، ولعله أن يكون فعل كذا وكذا، يعني غل، ولكن قولوا: مَنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(٢)، و(من) هذه عامة.

إذن: قل كل من قُتل في سبيل الله فهو شهيد، لكن لا تقل: فلان شهيد؛ لأنه قد يكون دفاعه في قلبه عن حمية وعصبية وما أشبه ذلك، لكن مع الأسف الشديد أن كلمة (شهيد) الآن صارت رخيصة، كما كانت كلمة (شيخ) فتجد أنه يُقال للإنسان الذي لا يعرف كوعه من كرّسوعه، يُقال له: شيخ! ونجد أن الذي يجلس في مجلس كلهم عوام، ثم يقوم ويتكلّم بكلام فصيح بين، وعن شجاعة فيقولون:

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب من يجرح في سبيل الله عز وجل، رقم (٢٨٠٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، رقم (١٨٧٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر: فتح الباري (٩٠/٦).

هَذَا الْعَالَمُ! هَذَا الْجِهْدُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ! فَيَكُونُ عِنْدَهُمْ شَيْخَ الشُّيُوخِ.

وكَذَلِكَ سَهِّلَتِ الْآنَ كَلِمَةُ (إِمَامٍ) فَلَوْ كَتَبَ الْإِنْسَانُ كِتَابًا مُخْتَصِرًا مِنْ أَبْسَطِ مَا يَكُونُ، وَأَقْلَ مَا يَكُونُ، قَالُوا: هَذَا إِمَامٌ، مَعَ أَنَّ الْإِمَامَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ جِهْدًا، عَالِمًا كَبِيرًا مَتَّبُوعًا، فَلَيْسَ كُلُّ إِنْسَانٍ يُؤَلَّفُ كِتَابًا يُقَالُ لَهُ: إِمَامٌ، وَلِذَلِكَ لَمَّا اخْتَلَفَتِ الْمَفَاهِيمُ، صَارَتِ الْأَلْقَابُ تُشَوِّشُ فَعِنْدَمَا تَقْرَأُ كِتَابًا صَغِيرًا أَلْفَهُ أَحَدُ النَّاسِ، وَتَقُولُ قَالَ: الْإِمَامُ فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ، فَيَظُنُّ السَّامِعُ أَنَّهُ إِمَامٌ مِنْ أَكَابِرِ الْعُلَمَاءِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ نَصِفَ الْإِنْسَانَ بِهَا لَا يَسْتَحِقُّ لِأَنَّ فِيهِ شَيْئًا مِنَ الْكَذِبِ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: الْآنَ رَخِصَتْ كَلِمَةُ (شَهِيدٍ)، حَتَّى يُقَالَ لِلْإِنْسَانِ إِذَا قَتَلَ نَفْسَهُ إِنَّهُ شَهِيدٌ، فَمَثَلًا الَّذِينَ يَضَعُونَ الْمُتَفَجَّرَاتِ فِي بُطُونِهِمْ، وَيَمُوتُونَ بِهَا، يُقَالُ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ: إِنَّهُ شَهِيدٌ، وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنَّهُ يُعَذَّبُ بِمَا قَتَلَ بِهِ نَفْسَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، لَكِنَّا لَا نُعَيِّنُهُ، بَلْ نَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا، وَنَقُولُ: كُلُّ إِنْسَانٍ قَتَلَ نَفْسَهُ فَإِنَّهُ يُعَذَّبُ بِمَا قَتَلَ نَفْسَهُ فِي جَهَنَّمَ، أَمَّا هَذَا الرَّجُلُ فَلَا نَقُولُ: إِنَّهُ فِي جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَفْعَلُ هَذَا مُتَأَوَّلًا، ظَانًّا أَنَّ هَذَا حَقٌّ، فَهَذَا لَا يُعَذِّبُهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ، أَرَأَيْتَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَتَلَ مُشْرِكًا بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَهُ هَارِبًا، فَقَالَ الْمُشْرِكُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَقَتَلَهُ مُتَأَوَّلًا، يَظُنُّ أَنَّهُ قَالَهَا تَعَوُّذًا مِنَ الْقَتْلِ، وَخَوْفًا مِنْهُ، وَنَحْنُ لَوْ وَقَعَتْ لَنَا هَذِهِ كُنَّا نَظُنُّ كَمَا يَظُنُّ أُسَامَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ تَعَوُّذًا مِنَ الْقَتْلِ، لَكِنَّ الرَّسُولَ ﷺ وَبَخَهُ وَقَالَ مُكْرِّرًا عَلَيْهِ: «أَقْتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ!»^(١)، حَتَّى قَالَ أُسَامَةُ: تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ أسامة، رقم (٤٢٦٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، رقم (٩٦)، من حديث أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أَكُنْ أَسْلَمْتُ؛ حَتَّى يَكُونَ هَذَا الذَّنْبُ مِمَّا يُغْفَرُ لِي بِالْإِسْلَامِ.

وَالْمُهْمُ: أَنَّ الشَّهَادَةَ أَمْرٌ مُهِمٌّ وَخَطِيرٌ جِدًّا، فَإِذَا فَعَلَ الْإِنْسَانُ فِعْلَةَ الْمُؤْمِنِ التَّقِيِّ فَقُلْ: أَحْسَبُهُ كَذَلِكَ وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَأَرْجُو لَهُ التَّوْفِيقَ، أَرْجُو لَهُ الْجَنَّةَ، أَرْجُو لَهُ الثَّوَابَ؛ حَتَّى تَسْلَمَ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ إِذَا لَمْ يُشْهَدْ لَهُ بِأَنَّهُ شَهِيدٌ -لَوْ كَانَ شَهِيدًا عِنْدَ اللَّهِ، وَلَا يَنْفَعُهُ إِذَا شَهِدْنَا أَنَّهُ شَهِيدٌ -وَهُوَ لَيْسَ شَهِيدًا عِنْدَ اللَّهِ، إِذَنْ: مَا الْفَائِدَةُ أَنْ نُعَرِّضَ أَنْفُسَنَا لَشَيْءٍ مُحَرَّمٍ عَلَيْنَا؛ لِأَجْلِ إِرْضَاءِ بَعْضِ النَّاسِ.

مَسْأَلَةٌ: بَعْضُ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ قَالَ: إِنَّ الْأُمَّةَ إِذَا اتَّفَقَتْ عَلَى الشَّأْنِ لِشَخْصٍ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْحَيْرِ وَالتَّقْوَى وَالْإِيمَانِ فَلَنَا أَنْ نَشْهَدَ لَهُ بِالْجَنَّةِ، مِثْلَ الْأُمَّةِ الْأَرْبَعَةِ، وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ اتَّفَقَتْ الْأُمَّةُ عَلَى الشَّأْنِ عَلَيْهِمْ، قَالَ: إِنَّهُ يُجُوزُ أَنْ نَشْهَدَ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَاسْتَدَلَّ لِذَلِكَ بِقَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ حِينَ مَرَّتْ جَنَازَةٌ فَأَثْنُوا عَلَيْهَا خَيْرًا، قَالَ: «وَجَبَتْ»، وَجَنَازَةٌ أُخْرَى أَثْنُوا عَلَيْهَا شَرًّا قَالَ: «وَجَبَتْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: «أَمَّا الْأَوَّلُ فَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَأَمَّا الثَّانِي فَأَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ»^(١).

وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٢)، وَلَكِنْ عَامَّةٌ

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، رقم (١٣٦٧)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خيرا أو شرا من الموتى، رقم (٩٤٩)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٥١٨/١١).

وَنَشْهَدُ بِالنَّارِ لِكُلِّ مَنْ شَهِدَ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، بِالْعَيْنِ، أَوْ بِالْوَصْفِ:
فَمِنَ الشَّهَادَةِ بِالْعَيْنِ: الشَّهَادَةُ لِأَبِي لَهَبٍ، وَعَمْرٍو بْنِ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيِّ،
وَنَحْوَهُمَا^[١].

المؤلفين في العقائد لا يذكرون هذا الثالث، وهو الذي اتفقت الأمة على الثناء عليه
أو القدح فيه.

وَأَنَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُكْرِرُ: أَيُّ فَائِدَةٍ لَشَهَادَةِ أَشْهَدُ بِهَا وَأَنَا بَيْنَ الْإِثْمِ وَالسَّلَامَةِ؟!
فَأَنَا إِذَا شَهِدْتُ هَذَا الَّذِي اتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى الثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَأَنَا الْآنَ
بَيْنَ الْإِثْمِ وَالسَّلَامَةِ، وَلَيْسَ بَيْنَ الْإِثْمِ وَالْغَنِيمَةِ، وَلَوْ كَانَ بَيْنَ الْإِثْمِ وَالْغَنِيمَةِ لَقُلْنَا:
نَنْظُرُ أَيُّهُمَا أَرْجَحُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ سَوْفَ يُرْجَحُ جَانِبَ السَّلَامَةِ عَلَى اخْتِمَالِ
الْإِثْمِ.

فَنَحْنُ نَقُولُ: هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ نَشْهَدُ لَهُمْ بِالْخَيْرِ، وَأَتَمُّهُمْ يُرْجَى أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ
الْجَنَّةِ، وَلَكِنَّ شَهَادَتَنَا لَهُمْ بِالْجَنَّةِ لَا تُوجِبُ لَهُمُ الْجَنَّةَ لَوْ لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِهَا، وَعَدَمُ
شَهَادَتِنَا لَهُمْ بِالْجَنَّةِ لَا تَمْنَعُ دُخُولَهُمُ الْجَنَّةَ لَوْ كَانُوا مِنْ أَهْلِهَا، فَالسَّلَامَةُ أَسْلَمُ.

[١] قَوْلُهُ: «وَنَشْهَدُ بِالنَّارِ لِكُلِّ مَنْ شَهِدَ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ بِالْعَيْنِ أَوْ بِالْوَصْفِ،
فَمِنَ الشَّهَادَةِ بِالْعَيْنِ الشَّهَادَةُ لِأَبِي لَهَبٍ» بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ «نَشْهَدُ» بِدَلِيلِ الْقُرْآنِ،
قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١-٣].

وكَذَلِكَ أَيْضًا: «عَمْرٍو بْنُ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيُّ» شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يُجْرُ قَضْبَهُ

وَمِنَ الشَّهَادَةِ بِالْوَصْفِ: الشَّهَادَةُ لِكُلِّ كَافِرٍ أَوْ مُشْرِكٍ شَرَكًا أَكْبَرَ،
أَوْ مُنَافِقٍ^[١].

-أي: أمعاءه- في النَّارِ^(١)، فنشهد له، ونقول: عمرو بن لحي الخزاعي شهد أنه في النَّارِ.

وكذلك كل من شهد له رسول الله عليه الصلاة والسلام بعينه في النار فإننا نشهد به.
[١] قوله: «وَمِنَ الشَّهَادَةِ بِالْوَصْفِ: الشَّهَادَةُ لِكُلِّ كَافِرٍ، أَوْ مُشْرِكٍ شَرَكًا أَكْبَرَ، أَوْ مُنَافِقٍ» فكل كافر في النار، وكل مشرك شركاً أكبر فهو في النار، وكل منافق فهو في النار، وهذا عمومٌ نشهد به، أمّا على سبيل التّعيين فلا.

كما يوجد الآن رؤساء كفرّة يموثون، فهل نشهد لهم أنهم في النار بعينهم؟
الجواب: أنا أرى أن الاحتياط وبراءة الذمة أن لا نشهد، وليس شهادتنا لهذا بالنار -في التّحرّز منها- كشهادتنا لكافرٍ مُعلنٍ كفره -لكن ما مات على الكفر- فهذا ربّما يهدى فيما بعد، لكن إنسان مات على الكفر ونشهد أنه إلى آخر لحظة من حياته: ما علمنا أنه أسلم، فالشهادة لهذا بالكفر قريبة، لكن مع هذا نقول: الاحتياط ألاّ تشهد، فإن شهادتك له بالنار إن كان ليس من أهلها فلن تؤثر، وإن كان من أهلها فلا حاجة لشهادتك، فهو من أهل النار، لهذا نرى أن الشهادة بالنار لكافرٍ على قيد الحياة لا تجوز بلا شك؛ لاحتمال أن يسلم، وكم من كافرٍ أسلم، أمّا إذا مات على الكفر ولم نعلم أنه قال يوماً من الدهر: «لا إله إلا الله» فهذا أيضاً لا نشهد له بالنار احتياطاً. ومعلوم أن الحكم الاحتياطي ليس كالحكم المجزوم به.

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾، رقم (٤٦٢٣)، ومسلم: كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون، رقم (٢٨٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَنُؤْمِنُ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ: وَهِيَ سُؤَالُ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِيِّهِ^[١].....

فَإِنْ قِيلَ: إِذَا حَكَمْنَا عَلَى يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ بِأَنَّهُ كَافِرٌ، فَهَلْ يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ بِدُونِ تَرَدُّدٍ؟

فَالْجَوَابُ: نَعَمْ، وَلَا شَكَّ فِيهِ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِمَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»^(١)، فَنَصَّ عَلَى الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ، لَكِنْ لَا نَجْزِمُ بِأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ بَعَيْنِهِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ.

لَكِنْ كُلُّ يَهُودِيٍّ فَهُوَ فِي النَّارِ وَكُلُّ نَصْرَانِيٍّ فَهُوَ فِي النَّارِ، كَمَا نَقُولُ: كُلُّ مُؤْمِنٍ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، لَكِنْ لَا نَشْهَدُ لِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ وَإِنْ كُنَّا نَرَى مُؤْمِنًا يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ وَيُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا نَجْزِمُ بَعَيْنِهِ، فَفَرَقَ بَيْنَ الشَّهَادَةِ بِالْعَيْنِ وَالشَّهَادَةِ بِالْوَصْفِ.

[١] قَوْلُهُ: «وَنُؤْمِنُ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ: وَهِيَ سُؤَالُ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ عَنْ رَبِّهِ، وَدِينِهِ، وَنَبِيِّهِ» نُؤْمِنُ بِهَا حَقًّا؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ أَشَارَ إِلَيْهَا، وَالنَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَيَّنَّهَا بَيَانًا وَاضِحًا.

وَفِتْنَةُ الْقَبْرِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ يُسْأَلُ فِي قَبْرِهِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ ثَلَاثُ مَسَائِلَ، وَعَلَيْهَا بَنَى شَيْخُ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رِسَالَتَهُ الصَّغِيرَةَ الْمُبَارَكَةَ وَهِيَ: (ثَلَاثَةُ الْأُصُولِ) أَوْ (الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ).

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ: كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ وَجوبِ الْإِيمَانِ بِرِسَالَةِ نَبِينَا مُحَمَّدٍ ﷺ، رَقْمُ (١٥٣)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^[١]
 [إبراهيم: ٢٧] فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ، وَأَمَّا الْكَافِرُ
 وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ: لَا أَذْرِي! سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُه^[٢].

[١] قَوْلُهُ: «﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَفِي الْآخِرَةِ﴾» نَسَأَلُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ، يُثَبِّتَهُمُ اللَّهُ بِالْقَوْلِ
 الثَّابِتِ وَهُوَ قَوْلُ الْحَقِّ: «﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾»، قَوْلُهُ: «﴿فِي الْحَيَاةِ
 الظَّاهِرُ أَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿يُثَبِّتُ﴾»، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ يُثَبِّتُهُمُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ، وَهَذَا
 أَحْسَنُ مِنْ أَنْ نَقُولَ: إِنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِ: «الثَّابِتِ»، بَلْ نَقُولُ مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿يُثَبِّتُ﴾ فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا تُثَبِّتُ أَقْدَامُهُمْ عِنْدَ الْجِهَادِ،
 فَلَا يَفْرُونَ، وَلَا يَنْهَزُمُونَ.

[٢] قَوْلُهُ: «﴿فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: رَبِّيَ اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَمَّا الْكَافِرُ
 وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ: لَا أَذْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُه﴾ وَرَدَ الْحَدِيثُ بِلَفْظٍ:
 «وَأَمَّا الْكَافِرُ أَوْ الْمُنَافِقُ»^(١) وَإِذَا طَبَّقْتَ هَذَا الْجَوَابَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «سَمِعْتُ النَّاسَ
 يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُه»، وَجَدْتَهُ يَنْطَبِقُ عَلَى الْمُنَافِقِ.

فَالْمُنَافِقُ يُسْأَلُ لَكِنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجِيبَ -حَتَّى وَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا يُجِيبُ
 بِأَفْصَحِ عِبَارَةٍ-، وَلَكِنْ فِي الْقَبْرِ لَا يُجِيبُ، يَقُولُ: «هَاهُ، هَاهُ، لَا أَذْرِي»، وَتَأَمَّلْ فِي

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْجَنَائِزِ، بَابُ الْمَيِّتِ يَسْمَعُ خَفَقَ النِّعَالِ، رَقْمُ (١٣٣٨)، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْكُسُوفِ، بَابُ صَلَاةِ النِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فِي الْكُسُوفِ، رَقْمُ
 (١٠٥٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ الْكُسُوفِ، بَابُ مَا عَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي صَلَاةِ الْكُسُوفِ، رَقْمُ
 (٩٠٥)، مِنْ حَدِيثِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بِلَفْظٍ: «وَأَمَّا الْمُنَافِقُ، أَوْ الْمُرْتَابُ».

وَنُؤْمِنُ بِنَعِيمِ الْقَبْرِ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّيهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^[١] [النحل: ٣٢].

قَوْلِهِ: «هَاهُ، هَاهُ» تَجِدُهُ كَأَنَّهُ يَعْلَمُ الشَّيْءَ وَلَكِنَّهُ نَسِيَهُ، أَوْ عَجَزَ عَنِ النُّطْقِ بِهِ، وَهَذَا يَكُونُ أَشَدَّ حَسْرَةً مِمَّا لَوْ كَانَ لَمْ يَعْرِفْهُ، فَلَوْ ضَاعَتْ لَكَ مِئَةٌ رِيَالٍ مِثْلًا كَانَ ذَلِكَ أَشَقَّ عَلَيْكَ مِمَّا لَوْ لَمْ تَمْلِكْهَا مِنْ قَبْلُ، وَهَكَذَا الْعِلْمُ إِذَا أَضَعَّتْهُ بَعْدَ حُصُولِهِ صَارَ أَشَدَّ عَلَيْكَ مِمَّا لَوْ لَمْ تُدْرِكْهُ أَوَّلًا.

إِذَنْ: الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّ الَّذِي يُسْأَلُ هُوَ الْمُؤْمِنُ وَالْمُنَافِقُ، أَمَّا الْكَافِرُ فَلَا يُسْأَلُ؛ لِأَنَّهُ لَا حَاجَةَ لِسُؤَالِهِ؛ لِأَنَّ الْامْتِحَانَ إِنَّمَا هُوَ لِلَاخْتِبَارِ، وَالْكَافِرُ سَاقِطٌ مِنْ أَصْلِهِ، وَلِذَلِكَ فَالْكُفَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُحَاسِبُونَ، وَإِنَّمَا تُنْشَرُ أَعْمَالُهُمْ، وَيُخْرَجُونَ بِهَا، وَيُقَالُ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ لَكِنْ لَوْ ثَبَتَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ ثُبُوتًا صَرِيحًا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ الْكَافِرَ يُسْأَلُ فَنَقُولُ: سَمِعْنَا، وَصَدَّقْنَا، وَآمَنَّا، أَمَّا وَلَفْظُ الْحَدِيثِ هَكَذَا: «سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُ» فَإِنْ ذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ جَوَابًا مِمَّنْ قَالَ ذَلِكَ، وَهُوَ الْمُنَافِقُ الَّذِي لَمْ يَصِلِ الْإِيمَانَ قَلْبُهُ، ثُمَّ الْمَعْنَى يَقْتَضِي أَلَّا يُسْأَلَ الْكَافِرُ؛ لِأَنَّ السُّؤَالَ لِلَاخْتِبَارِ وَالْامْتِحَانِ، وَالْكَافِرُ سَاقِطٌ مِنَ الْأَصْلِ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُثَبِّتَنَا وَإِيَّاكُمْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ.

[١] قَوْلُهُ: «وَنُؤْمِنُ بِنَعِيمِ الْقَبْرِ لِلْمُؤْمِنِينَ»؛ مِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: إِبْتِاثُ نَعِيمِ الْقَبْرِ، وَدَلِيلُهُ: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّيهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ: أَيِ: طَيِّبِينَ فِي الْعَقِيدَةِ، طَيِّبِي الْعَمَلِ، يَقُولُونَ - أَيِ الْمَلَائِكَةِ - حَالِ تَوَفِّيهِمْ: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أَيِ: فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ.

فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ: يُشْكَلُ عَلَى هَذَا: أَنَّ الْمَيِّتَ الْمُؤْمِنَ يُدْفَنُ فِي الْأَرْضِ، فَكَيْفَ تَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾؟

قُلْنَا: لِأَنَّهُ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «أَنَّهُ يُوسَّعُ لِلْإِنْسَانِ الْمَيِّتِ فِي قَبْرِهِ، وَأَنَّهُ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَنَعِيمِهَا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ»^(١). نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الْبَاءُ هُنَا لِلْسَّبَبِيَّةِ، فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّهَا لِلْسَّبَبِيَّةِ فَقَدْ سَلِمْتَ، وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّهَا لِلْعَوَظِ أَشْكَلَ عَلَيْكَ هَذَا مَعَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ»^(٢)، وَفِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ آيَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فَنَقُولُ: مَا أَسْهَلَ الْجَمْعَ بَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ وَبَيْنَ الْآيَاتِ! فَالْبَاءُ فِي الْآيَاتِ لِلْسَّبَبِيَّةِ، يَعْنِي: بِسَبَبِ الْعَمَلِ، وَالْبَاءُ فِي الْحَدِيثِ لِلْمُعَاوَضَةِ، كَمَا تَقُولُ: اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الثَّوبَ بِدَرَاهِمٍ، فَلَا يُمَكِّنُ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ عَوَظًا عَنْ عَمَلِهِ، وَلَكِنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِسَبَبِ عَمَلِهِ، وَالْفَرْقُ ظَاهِرٌ.

(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٤/ ٢٨٧)، وَأَبُو دَاوُدَ: كِتَابُ السُّنَنِ، بَابُ فِي الْمَسْأَلَةِ فِي الْقَبْرِ وَعَذَابُ الْقَبْرِ، رَقْمُ (٤٧٥٣)، مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ: كِتَابُ الْمَرْضَى، بَابُ تَمْنِي الْمَرِيضِ الْمَوْتِ، رَقْمُ (٥٦٧٣)، وَمُسْلِمٌ: كِتَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ، بَابُ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ بَلْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، رَقْمُ (٢٨١٦)، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَلَوْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُعَاوِضَكَ وَاللَّهُ لَتَخَسَّرَنَ خَسَارَةً مُؤَكَّدَةً؛ لَأَنَّكَ لَوْ أَحْصَيْتَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ بَنُوعٍ وَاحِدٍ مِنَ النِّعَمِ، لَكَانَ يَسْتَغْرُقُ جَمِيعَ أَعْمَالِكَ، فَمَثَلًا النَّفْسَ الَّذِي لَا يَشُقُّ عَلَيْكَ، وَلَا يُتْعَبُكَ وَلَا يُكَلِّفُكَ هُوَ نِعْمَةٌ كَبِيرَةٌ عَظِيمَةٌ، لَا يَعْرِفُ قَدْرَهَا إِلَّا مَنْ ابْتُلِيَ بِضِيقِ النَّفْسِ، فَهَذِهِ النِّعْمَةُ لَوْ أَنَّهَا قُوبِلَتْ بِعَمَلِ الشَّخْصِ فَكَمْ نِسْبَةً عَمِلَتْ بِالسَّاعَاتِ؛ يَعْنِي هَلْ هِيَ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَقَدْ تَكُونُ أَرْبَعًا، وَقَدْ تَكُونُ خَمْسًا؛ وَقَدْ يَسْتَغْرُقُ الْإِنْسَانُ وَقْتَهُ كُلَّهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ؛ حَتَّى النَّوْمُ فَإِنَّهُ يَنَامُ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَيُرِيحَ جِسْمَهُ وَيُعْطِيَ نَفْسَهُ حَظَّهَا، وَبِهَذَا يَكُونُ النَّوْمُ عِبَادَةً.

وَحَقِيقَةٌ؛ فَاَلْمَوْفُقُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجْعَلَ أَوْقَاتَهُ وَحَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ جَمِيعَهَا عِبَادَةً، فَإِنْ أَكَلَ نَوَى بِذَلِكَ التَّنَعُّمَ بِكَرَمِ اللَّهِ وَبِفَضْلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ نِعْمَةً أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ، فَيَنْوِي بِأَكْلِهِ وَطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ التَّقْوَى عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ، فَصَارَ ذَلِكَ عِبَادَةً، وَيَنْوِي بِذَلِكَ الْقِيَامَ بِوَاجِبِ نَفْسِهِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُرَاعِيَ نَفْسَهُ، حَتَّى إِنَّهُ إِذَا جَاعَ وَخَافَ الْمَوْتَ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ وَجُوبًا، فَإِنْ قَالَ: لَا يَجِبُ، وَأَنَا صَابِرٌ عَلَى الْمَوْتِ، قُلْنَا: بَلْ يَجِبُ أَنْ تَأْكُلَ لِتُؤَدِّيَ النَّفْسُ حَقَّهَا، فَصَارَ أَكْلُكَ الْآنَ عِبَادَةً، وَكَذَا اللَّبَاسُ؛ فَإِنَّكَ تَلْبَسُ الثَّوبَ تَسْرُّ عَوْرَتَكَ وَلِتَتَنَعَّمَ بِهِ بِالْوَقَايَةِ مِنَ الْبَرْدِ أَوْ الْحَرِّ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيَكُمْ الْحَرَ وَسَرَائِلَ تَقِيَكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١] إِلَى آخِرِهِ.

المُهِمُّ: وَاللَّهُ إِنَّهُ تَفُوتُ عَلَيْنَا أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ، تَضِيعُ عَلَيْنَا، وَكُلُّهُ بِسَبَبِ الْغَفْلَةِ عَنِ النِّيَّةِ، وَإِلَّا فَلَوْ اسْتَحْضَرْنَا النِّيَّةَ لَكَانَتْ كُلُّ حَرَكَاتِنَا وَسَكَنَاتِنَا عِبَادَةً نَثَابُ عَلَيْهَا.

وَنُؤْمِنُ بِعَذَابِ الْقَبْرِ لِلظَّالِمِينَ الْكَافِرِينَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾^[١] [الأنعام: ٩٣].

أقول: لو أنَّ أحدًا قابَلَ نِعْمَةَ اللَّهِ نَوْعًا وَاحِدًا مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْكَ بِعَمَلِكَ الصَّالِحِ لَا سَتَغْرَقَ كُلَّهُ.

ثُمَّ نَقُولُ - كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ -: إِنَّ تَوْفِيقَكَ لِلشُّكْرِ نِعْمَةٌ تَسْتَوْجِبُ الشُّكْرَ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ حُرِمَ الشُّكْرَ، فَإِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَوَفَّقَكَ لِشُّكْرِ النِّعْمَةِ، وَاسْتَعْمَلْتَهَا فِي طَاعَةِ مَوْلَاكَ فَهَذِهِ نِعْمَةٌ تَحْتَاجُ إِلَى شُكْرٍ، وَفِي هَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ^(١):

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللَّهِ نِعْمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يَجِبُ الشُّكْرُ
فَكَيْفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَاتَّصَلَ الْعُمُرُ

[١] قَوْلُهُ: «وَنُؤْمِنُ بِعَذَابِ الْقَبْرِ لِلظَّالِمِينَ الْكَافِرِينَ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾».

قَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أَي: لَوْ تَرَى هَؤُلَاءِ لِرَأْيَتِ أَمْرًا عَجَبًا، فَجَوَابُ «لَوْ» مَحْذُوفٌ، وَيُحَذَفُ فِي مِثْلِ هَذَا لِيَذْهَبَ الذَّهْنُ كُلُّ مَذْهَبٍ فِي تَقْدِيرِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ المراد بِهِمُ الْكَافِرُونَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ

الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

(١) البیتان لمحمود بن الحسن الوراق، انظر: الفاضل للمبرد (ص: ٩٥)، والصناعتين لأبي هلال العسكري (ص: ٢٣٢).

وقوله: ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أَي: فِي السَّكَرَاتِ الَّتِي تَغْمُرُهُمْ.
 وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أَي: الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كُلُّوْا بِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ
 مَا دُوْا أَيْدِيَهُمْ.

وقوله: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ شَحِيحُونَ جِدًّا فِي نُفُوسِهِمْ،
 وَلَا يَوَدُّونَ أَنْ تَخْرُجَ نُفُوسُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- يُبَشِّرُونَ بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ،
 وَعِقَابٍ مِنَ اللَّهِ، فَتَنْفِرُ النَّفْسُ، وَتَتَفَرَّقُ فِي الْجَسَدِ، هَرَبًا مِمَّا أُنْذِرَتْ بِهِ، يَقُولُونَ:
 ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَعْطُونَا إِيَّاهَا! وَتَصَوَّرَ هَذَا الْمَشْهَدَ، وَكَأَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يُرِيدُونَ
 أَنْ يُعْطُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْمَلَائِكَةِ!.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ﴾، «أَل» لِلْعَهْدِ الْحُضُورِيِّ: أَيُّ يَوْمٍ تَأْتِي الْمَلَائِكَةُ لِقَبْضِ
 أَرْوَاحِهِمْ: ﴿تُخْرَجُونَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أَي: تَجْزُونَ عَذَابَ الدُّلِّ: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ
 عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾، بِسَبَبَيْنِ:
 الْأَوَّلُ: الْكَذِبُ عَلَى اللَّهِ.

وَالثَّانِي: الْاسْتِكْبَارُ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَالْبَاءُ هُنَا السَّبَبِيَّةُ.

فَهَذَانِ دَلِيلَانِ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى نَعِيمِ الْقَبْرِ وَعَلَى عَذَابِهِ، وَهُنَاكَ أُدْلَةٌ أُخْرَى.
 أَمَّا السُّنَّةُ: فَقَدْ تَوَاتَرَتْ بِذَلِكَ تَوَاتُرًا لَا نَظِيرَ لَهُ، فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ
 فِي التَّوَاتُرِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَكُونَ كَأَحَادِيثِ عَذَابِ الْقَبْرِ؛ لِأَنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ كُلُّ النَّاسِ
 يَقُولُهُ، فَكُلُّ مُسْلِمٍ يَقُولُ فِي صَلَاتِهِ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ؛
 لِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ بِذَلِكَ، فَهُوَ يُشَبِّهُ أَنْ يَكُونَ كَتَوَاتُرِ الْقُرْآنِ، الَّذِي يَقْرُؤُهُ الصَّغِيرُ
 وَالْكَبِيرُ.

وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ.

فَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يُؤْمِنَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ^[١]،
وَأَلَّا يُعَارِضَهَا بِمَا يُشَاهِدُ فِي الدُّنْيَا^[٢]، فَإِنَّ أُمُورَ الْآخِرَةِ لَا تُقَاسُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا
لِظُهُورِ الْفَرْقِ الْكَبِيرِ بَيْنَهُمَا، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ^[٣].

[١] يَقُولُ الْمُؤَلِّفُ: «وَالْأَحَادِيثُ فِي هَذَا كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ، فَعَلَى الْمُؤْمِنِ أَنْ يُؤْمِنَ
بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ» حَتَّى يَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
حَقًّا، وَالْمُؤْمِنُونَ: هُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ.

[٢] قَوْلُهُ: «وَأَلَّا يُعَارِضَهَا بِمَا يُشَاهِدُ فِي الدُّنْيَا» لِأَنَّ بَعْضَ النَّاسِ -وَالْعِيَاذُ
بِاللَّهِ- يُنْكِرُ عَذَابَ الْقَبْرِ، وَفِتْنَةَ الْقَبْرِ، وَيَقُولُ: كَيْفَ يَكُونُ هَذَا، وَنَحْنُ نَحْفَرُ الْقَبْرَ
فِي أَوَّلِ يَوْمٍ أَوْ ثَانِي يَوْمٍ بَعْدَ وَضْعِ الْمَيِّتِ فِيهِ، وَنَجِدُ أَنَّ الْقَبْرَ هُوَ هُوَ لَمْ يُوَسَّعْ،
وَلَيْسَ فِيهِ آثَارُ عَذَابٍ، وَنَجِدُ أَنَّ الْبَدَنَ كَذَلِكَ لَمْ يَتَغَيَّرْ، وَكَيْفَ يَقْعَدُ الْإِنْسَانُ فِي
قَبْرِهِ، وَهُوَ يَوْضَعُ عَلَيْهِ اللَّبَنُ؟! وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَيَقْيِسُونَ أُمُورَ الْآخِرَةِ بِأُمُورِ
الدُّنْيَا، وَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِمَا يُشَاهِدُونَ، فَلَيْسُوا مُؤْمِنِينَ
بِالْغَيْبِ؛ بَلِ الْمُؤْمِنُ بِالْغَيْبِ يَقُولُ فِيمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ: حَقًّا حَقًّا حَقًّا، أَمَّا
هَؤُلَاءِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- فَهُمْ قَوْمٌ مُلْحِدُونَ، لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِمَا يُشَاهِدُونَ.

فَنَقُولُ: نَحْنُ لَا نُعَارِضُ هَذَا بِمَا نُشَاهِدُهُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ أُمُورَ الْآخِرَةِ
لَا تُقَاسُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا؛ لِظُهُورِ الْفَرْقِ؛ وَهُوَ ظَاهِرٌ.

[٣] قَوْلُهُ: «فَإِنَّ أُمُورَ الْآخِرَةِ لَا تُقَاسُ بِأُمُورِ الدُّنْيَا؛ لِظُهُورِ الْفَرْقِ الْكَبِيرِ بَيْنَهُمَا.
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ» عَلَى أَنَّنَا نَقُولُ لَهُؤُلَاءِ: أَلَيْسَ الْوَاحِدُ مِنْكُمْ فِي مَنَامِهِ يَرَى فِي الرُّؤْيَا أَنَّهُ

قَدْ زَارَ أَصْدِقَاءَهُ، وَأَنَّهُ قَدْ وَصَلَ الْبَلَدَ الْفُلَانِيَّ، وَأَنَّهُ قَامَ؛ وَهُوَ عَلَى فِرَاشِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ، حَتَّى لَحَافُهُ لَمْ يَسْقُطْ عَنْ ظَهْرِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَرَى أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، مَعَ أَنَّ تَعَلُّقَ الرُّوحِ بِالْبَدَنِ فِي الْمَنَامِ أَقْوَى مِنْ تَعَلُّقِ الرُّوحِ بِالْبَدَنِ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَإِذَا كَانَ هَذَا لِلرُّوحِ فِي حَالِ الْوَفَاةِ الصُّغْرَى، فَمَا بِالْكَ فِي الْمَيِّتَةِ الْكُبْرَى؟!

فَالْمَهْمُ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا -فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِأُمُورِ الْآخِرَةِ- أَنْ نُؤْمِنَ وَنُسَلِّمَ، وَلَا نَقُولَ: «كَيْفَ؟» و«لِمَ؟» النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، تَرَى الْمُؤْمِنِينَ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ، وَالْكَافِرُونَ فِي ظُلْمَةٍ لَيْسَ عِنْدَهُمْ نُورٌ، وَالْمَقَامُ وَاحِدٌ، وَالزَّمَنُ وَاحِدٌ، لَكِنَّ أُمُورَ الْآخِرَةِ لَا تُقَاسُ أَبَدًا بِأُمُورِ الدُّنْيَا، وَلِهَذَا قَالَ: «لِظُهُورِ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ»، وَهَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ حَقًّا، وَالْمُنْكَرِ وَالْمُتَرَدِّدِ، الْمُؤْمِنُ يَقُولُ: سَمِعْنَا، وَصَدَّقْنَا، وَآمَنَّا، وَهَذَا حَقٌّ وَلَا إِشْكَالَ فِيهِ، وَالْمُلْحِدُ يَتَرَدَّدُ أَوْ يُنْكَرُ.

